الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف

سارة حيدر

شَهقةُ الفرَس

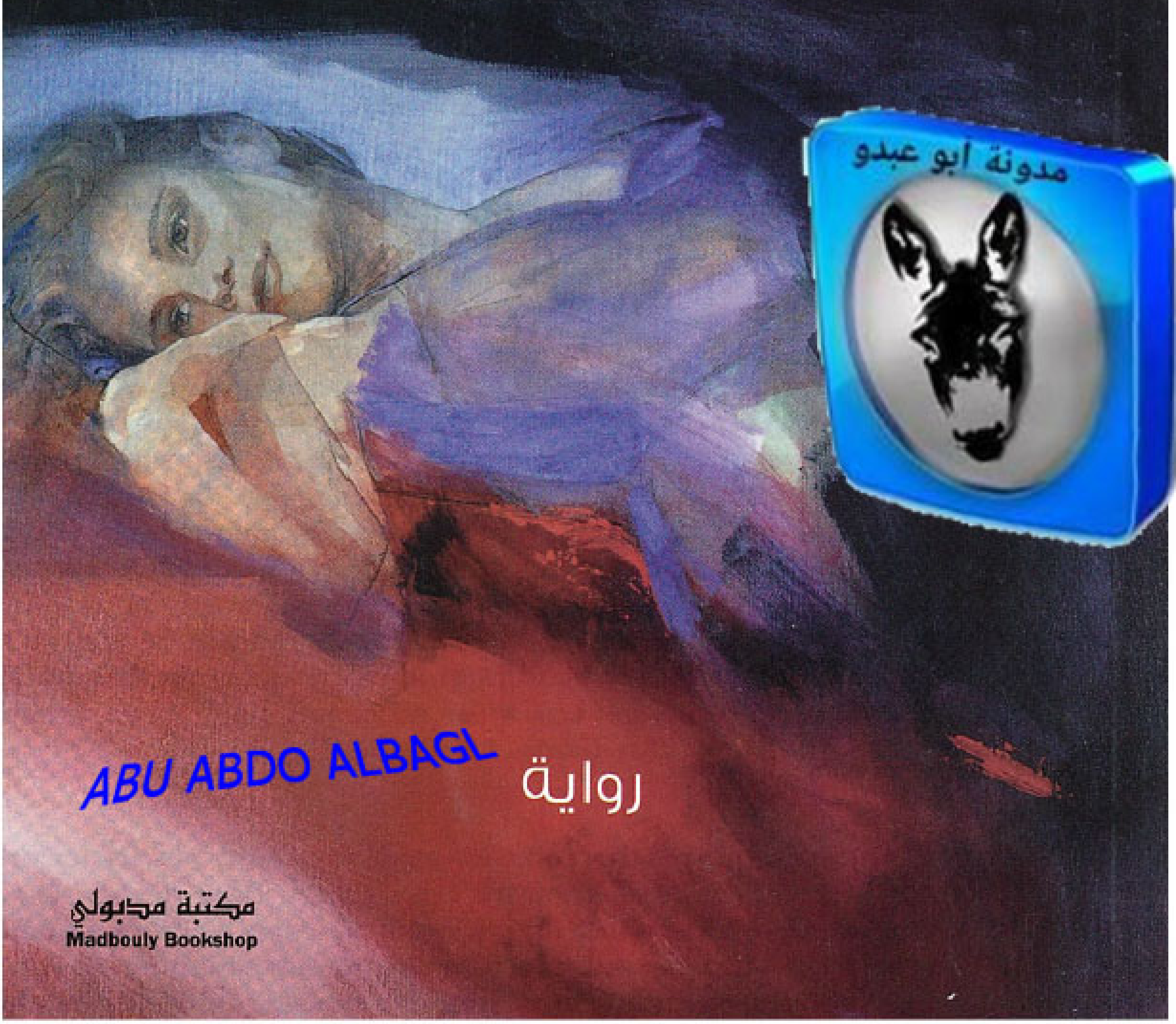

مدونة ابو عبدو
ABU ABDO ALBAGL

رواية

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

شَهقَةُ الفَرس

روايـة

سـارة حـيـدر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى
1428هـ - 2007م

ردمك 978-9953-87-180-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 ـ 785108 ـ 785107 (1-961)
ص.ب: 5574 ـ 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

الإهداء

إلى هيروس، إله الجنون والغابات العطرة..

إلى رائحة الغبار والملائكة التي غمرت ذات صباح كل فراغات الكون..

إلى كولومبيا والذاكرة..

إلى كل من يحيا داخل هذه الرواية..

مع محبتي..

سـارة

الفصل الأخير

كثيرا ما تصبح الأمور معقدة عندما نحاول فهمها؛ أمور تافهة، بديهية نعيشها كل يوم دون أن تثير انتباهنا ولكن شيطانا اسمه الفضول ينقض فجأة فتصير الأشياء البسيطة غير المهمة غاية في الغرابة..

عندما رأيته يحتضر، لم أفكر كيف ولماذا وإلى أين.. بل قلت فقط أن هناك شيئا غريبا سوف يحدث بعد لحظات في هذه الغرفة الصامتة.. لم أفكر أنني أحبه وأنني سوف أحزن على موته كما لم أحزن من قبل.. بل قلت فقط أن حياتي التي سأعيشها من دونه سوف تكون غريبة أيضاً.. لم أفكر في الجنون، أو شيء يشبهه، الذي بدأ يزحف ببطء على أجواء البيت، يغمر ألوان الجدران والستائر وإذا بي أكتشف أن كل شيء صار رماديا؛ بل قلت فقط إن الرمادي ربما هو اللون الحقيقي لكل شيء وأن وحدهما الخيال والخوف من الوحدة يلونان الأشياء في أعيننا..

كان يحتضر بهدوء.. يداه متشبثتان بطرف السرير و أسنانه تعتصر شفتيه دون شفقة.. كبرياءه لا يحتضر.. يبذل ما تبقى من جهده كي لا يئن.. ينظر إلي ويبتسم بمرارة.. هل يعتذر؟ أم أنه يطلب مني بصمت أن أقترب منه وأقبله؟ أم تراها ابتسامة المنتصر وهو يكتشف في لحظة تجلي أنه أقوى من كل شيء؟

قادتني قدماي دون أن أشعر إلى سريره ورأيت شفتي تقتربان

من ثغره وترتشفان منه قبلة خافتة، جميلة في هدوءها واضطرابها الخجول.. ثم أحسست بكفي وهي تغمر وجهه المحموم، تتوقفان قليلا عند عينيه وتغمضانهما بحنان.. تنزلان إلى عنقه وتكتشفان أن لا نبضة تشي بحياة ما..

استلقيت بجانبه، وضعت رأسي على صدره وأغفيت..

كل ما حدث بعد ذلك يستعصي على الذاكرة.. أشياء روتينية نحاول بها أن نعتذر لكل من يرحل عن عجزنا عن استبقاءه.. غَمْرُ الجسد بتراب نيسان الدافئ، حفل التأبين، بعض الدموع التي تنحدر بصمت من عيون أصدقاءه ووالده الذي ربما لم يفهم لماذا ابنه ذي الأربعين ربيعا وليس هو الذي يقترب من الثمانين..

كانت هند حاضرة أيضاً.. لم يزعجني ذلك.. كانت المرأة التي يلجأ إليها عندما يصير فراشنا مكانا مقفرا لا مجال فيه إلا للنوم أو ممارسة أشياء اعتيادية أُفرغَت فجأة من وحشيتها.. كانت ترمقني بشيء من الحقد الذي يشوبه الاحترام.. لعلها تتساءل لماذا لم يتركني ويسافر معها إلى فرنسا حيث رحلت لتتابع دراستها الجامعية.. لماذا ظل متمسكا بي رغم الجحيم الذي اعتدت على اقتياده إليه منذ زواجنا.. ولماذا مات قبل أن يقول لها إنه يحبها..

تخلصت من كلمات التعزية والأيادي الدافئة التي تشد على يدي الغارقة في برد غريب كأنما لتمنحها بعضا من حرارة الحياة.. انتزعت والده من حلقة الرفاق القدامى التي التفت حوله، انطلقنا بالسيارة إلى البيت، تناولنا العشاء بصمت وقبل أن أذهب إلى النوم استبقاني بحركة من يده التي مازالت تحتفظ بثباتها رغم

تقدمه في السن.. لم أكن بمزاج لأتحدث عن أي شيء لكن هذا الرجل ينجح دائماً في إرغامي على تنفيذ رغباته؛ ربما لأن كل شيء فيه يشي بابنه، وهذه القوة الرائعة التي مازالت تضطرم في أعوامه الثمانين وهذه النظرة التي لم ينجح الزمن في إخماد شعلتها..

- صديق أبله ربما تعرفينه، صاحب دار النشر المعروفة تلك، يريد أن ينشر كتابات المرحوم.. ما رأيك؟
- الأمر واضح: طبعا لا.
- هذا ما قلته لنفسي أيضاً لكني أردت استشارتك رغم كل شيء..

ابتسمت ولم يسألني لماذا، لحسن الحظ.. في لحظة جنون عادية، فكرت أن هذا الرجل صورة طبق الأصل عن ابنه ولولا كبر سنه لما منعت نفسي من امتلاكه هذه الليلة..

انسحبت إلى غرفتي وتركته في غرفة الضيوف، منسجما والصمت، غارقاً في تأملاته.. لعله يستحضر الأيام الخوالي عندما كنا نزوره بانتظام في مزرعته الفخمة، نركب الخيل، نتسابق، ينتصر دائماً بفضل أصالة فرسه وسرعتها الأسطورية، نتناول الغداء على العشب ويضحك مقهقها عندما يقبلني ابنه أمامه:

- فليذهب الحياء إلى الجحيم.. لو فعلت ذلك مع أمك لما ماتت في سن مبكرة..

ما أعظم هذا الرجل.. إنه حزين الآن، ويكاد الحزن يقتله لكنه شامخ دائماً، فارع القامة ورائع في صمته ووقاره.. كم وددت أن أجلس على ركبتي قرب كرسيه وأطلب إليه أن يحكي

لي عن مغامراته في أمريكا اللاتينية وهو يمسد على شعري.. لكن هذا الفراغ الموحش وهذا البرد الذي يستقر في داخلي.. هذا الصمت وهذا التعب الذي انفجر فجأة وانتشر في كل جسدي..

في الصباح التالي، رافقته إلى المطار، قبلني على الجبين وأرغم نفسه على حبس دموعه وهو يقول لي بلهجة مرتعشة هذه المرة:

- أنت امرأة شابة يا ابنتي.. لا تدفني نفسك حية.. تخيلي أنه هو من يطلب منك هذا بدلا مني.. تعالي إلى المزرعة كلما احتجت لذلك..

قبلني من جديد واختفى في رواق المسافرين..

ابتسمت.. الحياة جميلة بما يكفي كي تمنعني من دفن نفسي بسبب وفاته.. لا لن أدفن نفسي لكن شيئا ما تغير يا صديقي.. هناك جزيرة غرقت كالأتلنتيد تحت مياه المحيط.. هناك امرأة ماتت في داخلي منذ أن لامست يدي عنقه فوجدته صامتاً، خامداً، محملاً بعتاب أخير.. هناك كتاب انطوى منذ رحيله، مع بعض الصفحات الأخيرة التي بقيت بيضاء والتي لن أجرؤ أبداً على تلطيخها..

وهناك هذه الغرابة التي تغمر كل شيء.. لم يعد أي شيء بسيطا بالنسبة إلي.. حتى شروق الشمس، حتى القهوة التي أرتشفها هذا الصباح، حتى السيجارة التي تنفخ في رئتي جنيا ما ثم تخرجه شفتاي ببطء لتدعه يندثر في فضاء الغرفة.. كل ما كنت أفعله من قبل ويبدو لي غاية في البساطة صار ظواهر غريبة تثير

خوفي..

زوربا كان يعيش هذا الجنون بفرح جارف يتجدد كل صباح.. كان العالم يولد كل يوم في عينيه، وكان مشهد الشجرة المنتصبة في أعلى السهل كمعجزة يراها لأول مرة.. وكان يولد مع العالم كل لحظة..

لكن ما يحدث لي هو على العكس من ذلك تماما.. شروق الشمس يبدو لي منظرا مرعبا يؤذن بكارثة ما، غروبها مشهدا آثما لغرق الحياة بين أحضان العتمة، الناس الذين يكتظ بهم الشارع، الذين ألتقيهم في العمل، الذين يتسابقون في الجرائد لنيل شيء غامض، أشباح متنكرة في زي بشر لتخريب ما تبقى من هذا العالم.. وهناك أشياء أخرى ترعبني دون أن أفهم لماذا..

وأكتشف فجأة أنني لن أفهم أي شيء بعد الآن لأن كل شيء تعرى من قناع البساطة الذي لطالما خدعني، لأن كل شيء قد صار مجردا الآن من أحكامنا المسبقة وارتياحنا لجهلنا بكنهه الحقيقي..

وأكتشف بهدوء مرعب أن الجحيم سيصير مشهدا يوميا أعيشه بصمت دون أن أستطيع شرح ما يحدث لي لأي كان، حتى لتولستوي (كما يحلو لي تسمية والده)، لن أستطيع كتابته أيضاً ولا حتى الكتابة عن أي شيء آخر.. فلغتي قد خرست منذ أن انتزعت الغطاء الملون الذي كان يغمر كل شيء..

تفاصيل بلا أهمية

(1)

يخيل إلي أن رأسي صار يزن مئات الأطنان وهذا الوعي الكثيف، اللامحتمل بالعالم الخارجي، بأدنى تفاصيله، بأصغر مخلوقاته.. لم أشرب بالقدر الذي يشعرني بالدوار ولم تكن كمية الحشيش التي أحضرتها لي مروى كافية لتفلت في روحي ألعابها النارية؛ فمن أين هذا الإحساس الرهيب بأن الكرة الأرضية باتت في أحشائي وكل ما يحدث فيها صار يعنيني بشكل ما؟ من أين هذه الصور المتعاقبة المتسارعة في رأسي؟

ينظر إلي باهتمام، يبتسم أخيرا وهو يتأملني أحاول القبض على شيء لا يراه لكنه يخمنه..

- ألم أقل لك أن العادات السيئة لا يمكن أن يصححها الزواج؟
- لا بد أن هذه الغيمة سوف تصل إلى مكان ما، ويجب أن أرافقها، لكنها كالزئبق.. اللعينة، لقد اختفت..

يضحك وهو يرى ذراعي تتهاوى بعدما فشلت في القبض على غيمة الوهم.. يقترب مني، يداعب شعري بحنان، ينزل بسبابته نحو شفتي، يرسمهما من جديد ثم تتابع الإصبع السحرية مسيرتها إلى تفاح الخطيئة الذي يزداد استدارة عندما تلامسه رياح الجنوب.. تسري قشعريرة الرغبة في كامل الجسد، وفجأة تصبح الحياة ذات معنى.. وفجأة تستيقظ جنية الليل، تقفز في داخلي،

تبحث عن مخرج، تحاول حبال الحشيش منعها من الخروج، تتراجع بعض الشيء عندما تقابلها رائحة الكحول عند كل باب تحاول الخروج منه، لكنها تستمر في البحث، مصرة هي على اختراق الجسد والاستيلاء على هذا الرجل..

يمتد بيده إلى المناطق المكهربة، يشعرني بحرارة جسده وهو يلتصق بي، يتجول كعالم آثار بين الحواس القديمة، يفحصها بحياد وحده يتقنه، ينظر إليها كما كل مرة: بنفس الفضول ونفس الدهشة... يتجول في مدينة يبنيها الخراب بعد كل حرب.. يستمر ببطء صامت...

وحين يتيقن من أن كل خلية في جسدي صارت تشتهيه، ينسحب بهدوء مبتسما كالعادة:

- سأخرج إلى الحديقة، صار البيت كله مضمخا برائحة الحشيش.. ارتاحي من هذه الطقوس الآن واذهبي إلى النوم.

أرتمي على السرير وأحاول ألا أفكر في كل هذا.. أحاول أن أستعيد تلك الغيمة وأطاردها بعناد رغم يقيني من أنها لن تقودني إلى أي مكان..

في عيني، يتراقص العالم بأسره.. في ركن ما، أشاهد طفلا يموت تحت عجلات سيارة مسرعة، فأشعر بكل ما يحدث في جسده قبل أن يصبح خامدا: تمزق العضلات، انسحاق العظام وهذه القطعة الغامضة التي تغادر الجسد ببطء وتزرع في طريقها آلام اللحظة الأخيرة؛ آلام تدوم أبدية بأكملها..

وفي ركن آخر، أشاهد عاشقين يمارسان الحب والشموع

محيطة بهما من كل جانب.. الذكر يسحق الأنثى بين ذراعيه، يحاول أن يصل معها إلى غيمة ما، تصرخ كلبؤة منتشية، يرتعش جسدها ويلتصق أكثر بجسده، أما أنا فأشعر بكل انفجاراتها، يرتعد جسدي كما جسدها وتبلله أمطار النشوة التي تولد من بركان ما..

وفي ركن آخر، يقتحم الجنود بيت أحد الوطنيين.. أشعر بألم المرأة وهم يغتصبونها أمام زوجها، واحدا تلو الآخر.. ثم أحس بكل طلقات الرصاص وهي تخترق جسديهما، أرى دما غزيرا يتدفق من جسدي، أتألم وأنا أعرف ألا شيء من هذا حقيقي، ولكني أتألم ومقتنعة أن الألم حقيقة لا أحد يستطيع إنكارها..

يعود من الحديقة.. لا بد أن منظري وأنا مستلقية على بطني يثيره كما كل مرة فقد قفز فجأة إلى السرير وهاهو يغمر جسدي بقبلات محمومة.. أريد أن أخبره أنني قد مارست الحب للتو وبعدها اغتصبني جنود لم أحص عددهم، ولذلك فأنا متعبة.. لكني أصمت مستسلمة.. أتذكر فجأة ما قالته لي مروى عندما رويت لها مغامرتي مع رجل مارست معه الجنس في اليوم ذاته الذي تعرفت إليه: "إنه الظمأ الأبدي يا عزيزتي.. الجنس بالنسبة لك هو الطريق الوحيدة للخلود. في كل مرة تمارسين فيها هذه الأشياء، يخيل إليك أنك ابتلعت كمية إضافية من رحيق الحياة.. تعتقدين أن كل رجل يأخذك بين ذراعيه سوف يمنعك من الموت.. هذا كل شيء."

تستمر الغيمة الغامضة في الفرار وأستمر أنا في مطاردتها بينما

يستمر هو في إحراق جسدي بأنفاسه.. ويصير لون العالم أحمرا ذا طعم حامض لذيذ.. وفي طريقي نحو الجحيم، ألتقي ببعض الأصدقاء القدامى وهم يصفقون إعجابا.. ويباركنا الشيطان بلفحة نار انتقاها بعناية من ألسنة جهنم.. وقبل أن نصل إلى هناك، يفاجئنا نور غريب وأقذف أنا حمم اللحظة الأخيرة..

* * *

(2)

اخترعني كاتب بورنوغرافي ثم اختفى تاركا لي حرية الحركة في حكاياته.. فَعَمَّت الفوضى الكتاب وزالت آثار الزمن والمكان وحتى ملامح الجسد ليصير هذا الأخيرَ ملخصا في جبل من الحمم التي تبحث عن حمم من جبل آخر لتلتحم بها فينفجر بركان لانهائي..

نسي الكاتب أن يرسم حدودا بين أراضي الشهوة فتكاثرت الغزوات واختلطت الأنساب واضمحلت جميع الشرائع لتحل مكانها ديانة الشهوة، ملكة متربعة على الأجساد.. أما الروح فتحلق من فوق وقد طاردتها النيران مجبرة إياها على الفرار..

هاهو تولستوي يحاول أن يهزم ابنه على رقعة الشطرنج.. منذ ستة أشهر لم ينجح أحدهما في حسم الأمر.. مازال الملكان متشبثَيْن بعنادهما المتوارث أمام حصار البيادق والفيلة ومازلت أبحث عن طريقة ما لأطرد عني أفكارا غير لائقة..

فهناك، في أقصى الغرفة، يجلس إدوارد منكبا على كتابه غير

آبه بجو المرح الذي يثيره تولستوي وهو يروي نكته الجريئة.. وزوجي يدرك جيدا أنني في هذه اللحظة أحاول عبثا الانسحاب من غرفة خيالية مضاءة بنيران شاحبة تهتز جدرانها تحت وقع صراخي وأنا أرتعش بين ذراعي أخيه إدوارد.. يدرك ذلك ويشعر بلذة خفية لأن الغرفة ستبقى سجينة لحلم شبقي لن يتحقق أبداً، فالكتب وحدها تمتلك جسد إدوارد وروحه أما النساء فمجرد أدوات عابرة لمسح الغبار عن الصفحات الصفراء ونفضه عن بعض التفاصيل الغامضة لقصة ما..

تستسلم الملكة للفرس التي حاصرتها في لحظة غفلة ويقهقه تولستوي شامتا أمام هدوء ابنه الذي يردد: "مازال الملك واقفا يا صديقي وموت الملكة لا يعني شيئا سوى أنه قد تخلص من عبء ثقيل ويمكنه الآن أن يحكم بحرية".. أرتعش كريشة تداعبها نسمة خريف وأنا أسمع تلميحاته الرائعة.. يضحك والده وهو يرمقني بنظرة ذات معنى قبل أن يتراجع بفرسه ليترك مكانا واسعا لعبور الفيل.. أتأمل الرقعة غير مصدقة أنها وحدها الآن تأسر اهتمام هذين الرجلين..

أتذكر يوم روى لي تولستوي عن مشهد مشابه لهذا عندما كان وابنه في إسبانيا يحاولان إنهاء لعبة دامت ثلاثة أشهر بينما يتراكض الناس في الخارج تحت وقع الانفجارات التي هزت مدريد في تلك الفترة، ولا أحد منهما يبدو منتبها فعلا لما يحدث خارج الرقعة بما أنها كانت تحوي حربا أكثر أهمية من تلك التي تتحدث عنها الجرائد منذ أسابيع..

يذهلني هذا الانقياد خلف سراب الانتصار، وقبل أن أتفوه بسؤال لطالما أرقني عن سر ولعهما بهذه اللعبة، أرى إدوارد يطوي كتابه اللعين ويتمنى لنا ليلة سعيدة..

- هل وجدت شيئا ما في كتابك؟ دواء ضد الموت أو طريقة ما لتأخير موعد القيامة؟

يسأله تولستوي ساخرا دون أن ينتزع عينيه من الرقعة..

- وجدت تفسيرا معقولا لظاهرة الجنون المزمن..

يقهقه تولستوي كأنما لسعادة خفية في داخله بهذا الجنون المزمن الذي يرفض مغادرته رغم كبر سنه.. لا أجهد فكري لتحليل فلسفة حماي، لا أفكر سوى بمنظر الكرسي الفارغ الذي صار بإمكاني الجلوس عليه لأشعر بحرارة المستحيل.. لكن ذكاء زوجي وصمته الفاخر ينتصران علي فأبقى جامدة في مكاني، أتابع بذهول لا يفسر حرب الفيلة والملوك اللانهائية..

تدق الساعة الواحدة صباحا فيقرران إجلاء ساحة المعركة والسماح للجنود بأخذ قسط من النوم حتى يتمكنوا من متابعة القتال في الغد.. أجرجر زوجي الذي ثمل قليلا هذه الليلة إلى الغرفة وأحاول إقناعه بكلمات يقولها الجسد بمتابعة حربه على رقعة السرير..

يصعد بلسانه من أخمص قدمي إلى غاية شعري ثم يستلقي على ظهره مبتسما:

- يا حبيبتي، الليلة لن تكوني لي حتى وأنت ترتجفين بين ذراعي.. تعرفين أنني رجل شرقي ولا أحب امتلاك أشياء

الآخرين.. ربما في الغد، سوف يغادرك الجني وأستطيع الاستيلاء عليك من جديد..

لا أدري لم فكرت بكلمة "أشياء" وحدها قبل أن أغرق في النوم..

* * *

(3)

في الليالي الباردة، حين يكون الجسد مهيئا للبحث عن الحرارة القصوى، يحلو له الجلوس إلى مكتبه والكتابة..

يتصاعد دخان السجائر التي تحترق من غير ما سبب وينتشر الأنين الهادئ لشوبان في فضاء الغرفة.. أحاول ألا أركز نظري على النار المشتعلة في المدفئة، أضع أمامه فنجان القهوة ببطء فإذا به يمسك بذراعي دون أن يزيح عينيه عن شاشة الكمبيوتر.. تزداد النار التهابا في المدفئة، وأحاول أن أفكر بأية طريقة سوف أنتحر إن لم يترك جهازه اللعين ويرافقني إلى غرفة النوم.. يطبع قبلة حارة على ذراعي قبل أن يطلقها ويعود إلى العمل..

أبتسم أنا بحزن وقد نسيت كليا مشروع الانتحار بعد أن تذكرت فجأة أنني على موعد في الغد مع صديق قديم عاد مؤخرا من السفر.. أسارع إلى خزانتي لأنتقي ثوبا يليق بالمناسبة ثم أشعر بكسلي المعتاد وألجأ إلى السرير مقنعة نفسي بصحة مقولة ديكارت: "لا شيء يزول، كل شيء يتحول"..

بعد ساعات، أستيقظ وأشعر بجسده الدافئ وهو ينزلق بخفة

تحت الغطاء، يحيط خصري بذراعيه، يتسلل بوجهه إلى عنقي مزيحا عن طريقه خصلات شعري المنفوش ليطبع قبلة مبتلة تحت أذني.. يشعر حتما بهذه الرعشة التي هزت جسدي فيتسلل بيده إلى مكان ميلادها، أُطبِقُ عليها الحصار بركبتي فيتمتم لي: "أحبك، ليلة سعيدة".. ينام ويده مازالت تغمر فوهة البركان بأصابعها الرشيقة.. أنام أنا الأخرى مرددة في داخلي: "لا شيء يزول، كل شيء يتحول"..

* * *

(4)

أدخن ككل صباح وأنا أتناول قهوتي المرة.. ألاحظ أن هدوءه الأسطوري قد بدأ ينسحب من وجهه ليترك مجالا لقلق صاحب يشي بمدى أهمية المكالمة التي تلقاها للتو.. وكالعادة، ينظر إلي بحثا في وجهي عن سبب يقنعه بأن كل شيء على ما يرام..

- إدوارد سيتزوج.. الأسبوع القادم..

أحاول أن أبتسم لكني أشعر بثغري يتقلص بسرعة هائلة ويتحول فجأة إلى مجرد نقطة غبار ساكنة.. في غضون ثوان، أستحضر ذلك الكرسي الذي منعت نفسي من الجلوس عليه لسبب مازلت أجهله.. وفجأة تنتابني رغبة في الصراخ..

استقبلنا تولستوي بضحكاته المعتادة متندرا بهذا الزواج الأسطوري:

- لا بد أن أحد كتبه أقنعه أخيرا بألا جدوى من مقاومة

الرغبات العادية..

يقبلني على جبيني كعادته ويُذَكِّرُ ابنه برقعة الشطرنج التي مازالت تنتظر في المكتبة.. أبحث أنا بعيني عن إدوارد وعندما أجده أبحث في وجهه عن تبرير لهذه الجريمة التي سيرتكبها في حق نفسه وفي حق أحلامي المجنونة.. لكني لا أجد شيئا.. مازال وجهه إلهي الجمال وشفتاه محملتان بوعد غامض.. أحاول أن أتلاشى وأنا أطبع على خده قبلتي "الأخوية" لكن وجود زوجي وتولستوي يمنعانني من ذلك فأنسحب إلى الغرفة مدعية التعب..

في الرواق، ألاحظ أن غرفة إدوارد مفتوحة على غير العادة، لا أقاوم رغبتي في الدخول فإذا بي أجد امرأة نصف عارية، نائمة كملاك على السرير.. لم أفكر لأي سبب ترك زوجها المستقبلي باب الغرفة مفتوحا وهو المتشبث بسرية عالمه الخاص، لم أفكر متى وكيف اقتحمت هذه المرأة حياته وأقنعته بالتخلي عن وحدته والبحث معها عن قصة جديدة مختلفة عن اللواتي يقرأها في كتبه الصفراء، لم أفكر كم سيدوم هذا الزواج وهل ستحدث معجزة تجعله يستمر أكثر من شهر... فكرت فقط أن هذه المرأة جميلة للغاية، جميلة جمالا هادئا، أنثويا.. لكنه خطير..

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أنسحب إلى غرفتي.. جلست قرب النافذة فأشعرني ذلك بالدوار.. لجأت إلى السرير فشعرت بالاختناق.. تناولت حقيبتي لأوضب الأغراض فضجرت.. قررت أن أخرج وأمتطي فرسا لعلها تقودني إلى مكان ما؛ لكني في

الرواق، توقفت من جديد أمام غرفة إدوارد ولبثت أتأملها... كم هي جميلة، وكم أكرهها..

- إلى أين؟ ألا تريدين التفرج على معركة اليوم ورؤية زوجك وهو ينهزم نهائيا؟

- بي رغبة في الطيران، أين كولومبيا؟

- يا ابنتي لا تغامري مع هذه الفرس المجنونة.. إنها غاضبة هذه الأيام لأني منعتها من ممارسة الحب مع عاشق جديد، ذلك أنه من فصيلة رديئة.. سوف تصب جام غضبها عليك..

- لا تخش شيئا.. الإناث يجدن دائماً طريقة للتفاهم خصوصا عندما يعانين من دكتاتورية الجنس الآخر..

يضحك تولستوي مبديا إعجابه بتلميحاتي البارعة، ينظر إلى ابنه معاتبا ثم يلتفت إلي في مشاكسة أخيرة:

- لا بد أن هذا الأحمق مازال يلعب معك لعبة القط والفأر.. إنها في الحديقة الخلفية يا ابنتي لكن لا تبتعدي بها كثيرا حتى لا نضطر للبحث عن بقاياك إذا ما فشلتما في التفاهم..

وأنا على وشك الخروج، أسمع صوت إدوارد وأحاول عبثا أن أصدق ما يقترحه علي:

- أريد أن أقنع أبي أخيرا بأن فرسه لا تساوي شيئا.. هل تريدين أن نتسابق؟

أنظر إليه، أبحث في وجهه عن شيء قد يشي بما يفكر به لكني كالعادة أصطدم بحراس الصمت الرابضين على أسواره.. أراه يتقدم نحوي وأجد نفسي أسير إلى جانبه خارجة من عتمة

البيت وعيونه المحدقة.. أسمع لوقع خطانا المنسجمة على التراب وأحاول إدراك مدى أهمية هذا الموقف.. أبحث عن وسيلة للكلام معه عن هذا الزواج المضحك لكني لا أجد لغتي.. أنظر إليه وأنا أداعب "كولومبيا" بينما هو يسرج حصانه مستعدا للسباق كأنه يقنعني أننا سنتسابق فقط.. نتسابق، هذا كل شيء..

- منذ متى أصبحت رجلا ناضجا بما يكفي ليقرر الزواج؟

- منذ أن اكتشفت سر ما يجمعك بأخي..

تصهل كولومبيا كأنما نذكرها بجرح قديم.. أحاول التفكير بما قاله لكني أفقد توازني وأكاد أسقط من على صهوة الفرس..

- ماذا؟ هل أنت حامل؟

أضحك..

- يبدو أنك لم تفهم شيئا مما يجمعني بأخيك..

ينطلق السباق ولا أحد سوى البرية والسماء يمكنه حسم النتيجة.. تركض كولومبيا مخلفة وراءها غبار الماضي وذكريات الجياد العريقين الذين خَلَدوا وإياها لحظة انتشاء.. أشعر بأنفاسي تنسحق تحت حوافرها وإدوارد يحاول عبثا اللحاق بنا إلى هناك، إلى تلك النقطة الغامضة التي تلمع من بعيد وتدعوني بصمت لإدراكها والسفر..

- يا مجنونة.. أوقفيها ولا تنتظري أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها..

يصرخ إدوارد ضاحكا وأشعر بالقلق الذي يجلجل في أثير ضحكته المشتهاة.. لكني لا أحاول إيقافها.. يتصاعد الغبار ومعه

أنفاسي التي تمزق غباء السنوات التي مرت دون أن أفهم شيئا.. يستفزني البعيد المغشى بالضباب فأركض، وكولومبيا تهمس لي مطمئنة: "لا تخافي"..

لم يحدث وأن أحببت أحدا سوى زوجي أما إدوارد فإله قفز إلي من كتاب قديم ليعلمني كيف أضبط نزواتي الجامحة وأقتنع أخيرا أن ليس كل ما أرغب فيه قابل للتحقق..

تزوج من تلك المرأة التي زاد جمالها ليلة العرس؛ كنت أبتسم لها باستمرار وأفكر أنني أحبها وأكرهها في آن، أريد تقبيلها وخنقها في نفس الوقت.. تولستوي يرحب بابنته الجديدة موصيا إياها بالصرامة في تربية هذا الطفل الكبير الذي تزوجته أما أنا فأوصيها ضاحكة بإذهاله منذ الليلة الأولى..

يرمقني إدوارد مبتسما كأنه يريد أن يذكرني بما حدث منذ يومين عندما ركضت بي كولومبيا إلى آخر الدنيا ونجح هو في اللحاق بنا وإقناعها بالتوقف قليلا.. لا شيء مما حدث بعدها قابل للتصديق، ولعلني لم أصدقه بعد تماما..

لم تصهل الفرس ولم تفر وهي تشاهدنا نتلوى في التراب الرطب وحبات المطر تغمر المشهد بلمسة ضبابية خارقة.. شعرت بأنها في أمس الحاجة للركض بعيدا والبحث عن ذلك الحصان المنحدر من "فصيلة رديئة" الذي منعها تولستوي من امتلاكه.. لكنها أصرت على البقاء كما لتحمينا من الآخرين ومن.. أنفسنا.

شعرت أن إدوارد على وشك إزهاق أنفاسي وهو يردد لاهثا:

- إن ما يجمعكما أقوى من كل هذا.. أعرف ذلك جيدا..

استحممنا بعدها في بركة مياه معدنية ساخنة.. شعرت بحقده وهو يلفح جسدي وأردت لتلك اللحظة أن تموت بسرعة حتى نعود إلى البيت وإلى الواقع.. لكنها طالت إلى ما لانهاية، متلذذة بسطوتها وعجزنا المؤلم عن تفسير ما حدث أو منحه معنى ما.. كنت أعرف أن لا شيء يدعو للتفكير الجدي فقد اشتهيته رجلا مستحيلا يعذبني بصمته واستغراقه في القراءة متجاهلا صخب أنوثتي وجبروتها.. والآن، امتلكته بين أحضان البرية كما تمنيت، ولم يبق من الشهوة إلا ذكريات باهتة سيتكفل زواجه بمحوها..

وكولومبيا مازالت تحدق في الأفق وحدس غريب يتمتم لها أن الحصان المجهول سوف يظهر من جديد ليأخذها إلى البعيد..

* * *

(5)

- هل كان ذلك ممتعا؟

لا أدري من أين يأتي بهذه القدرة على تخمين كل الجرائم التي أرتكبها في حقه وحق نفسي.. لا أدري من أين يغزوه هذا الهدوء وهذه اللذة الآثمة عندما يعلم أنني مارست الجنس مع رجل آخر.. يا إلهي ما أعظم هذا الرجل..

أصمت، ربما خجلا أو عجزا عن قول الكلمات المناسبة.. أحضر القهوة وأجلس قبالته، أنظر إليه بصفاء وأعرف أنه يرى في عيني مدى انجراف هذا الحب الذي لم ولن تحطمه المغامرات العابرة..

ينهض من مجلسه، يقترب من وجهي وتلفحني أنفاسه الحارة.. يطبع على ثغري قبلة منسية ويغادر البيت..

تتصل بي مروى وتخبرني بفرح أنها هذه المرة تمكنت من الحصول على "سلعة" ذات جودة نادرة.. أشعر بالقرف لكني أدعوها للمجيء موصية إياها بإحضار مؤونة تكفي لأشهر طويلة..

إدوارد انسحق من الخيال والذاكرة وصرت أتمنى لو ينسى هو أيضاً ما حدث يومها.. أما كولومبيا فصامتة دائماً، كأية فرس جريحة.. وتولستوي يبدو، رغم مظاهر اللامبالاة والطيبة التي تطفو على وجهه، على علم بكل شيء.. لا أبالي.. منذ صغري لم أعرف معنى للندم ولا سبب يدعوني لاكتشافه الآن..

مادامت الموسيقى تغمر كل شيء كنور شفقي ومروى طيبة بما يكفي لتحضر لي "المؤونة" كلما احتجت لمطاردة الغيوم، وزوجي رجل رائع، وجنوني المزمن يمنحني ذوقا مختلفا للكون، سأظل أركض ككولومبيا في برية هذا العالم دون أن أبحث عن شيء، دون أن أجد شيئا..

لا أدري لماذا تنتابني رغبة مفاجئة في مغادرة البيت والطيران بسيارتي بعيدا..

- ألو مروى، سأخرج.. لا تأت اليوم.. نلتقي غدا..

أقفز إلى السيارة وأتركها تقودني إلى مكان ما.. أنتظر أن ينفجر الأفق ويسطع من خلفه عالم آخر.. تنزلق الطريق بسرعة مذهلة تحت العجلات ويبدو لي الكون صفحة بيضاء طويلة أمزقها بصبر دون أن أدري متى سوف أصل إلى نهايتها.. تتلاشى الأشياء

التي تُعَمِّرُ الفضاء من حولي فأصير وحيدة كفرس تركض خلف الريح..

من أين تشرق الشمس؟ إلى أين يسافر الشتاء عندما تصير شمس حزيران حارقة لدرجة غير محتملة؟ متى يتوقف القمر عن دورانه حول الأرض؟ في أية نقطة يصمت الكون؟

ينطلق نداء خفي من مكان ما، أصيغ السمع كهرة تشعر بأن أحدهم يريد الاقتراب منها، أتسلق جدار الصمت ويبدو لي ذلك غاية في الصعوبة، أستسلم لكل شيء وأدري أن وحده بودلير كان على حق عندما قال: "أجد في الشموس المبتلة التي تسطع وسط هذه السماوات الضبابية سحرا قريبا من سحر عينيك الخائنتين وهما تلمعان خلف الدموع"..

- يا مجنونة، ألم أقل لك أنه من الخطر قيادة السيارة في لحظات الانعتاق؟

أجد نفسي في مستشفى تتضوع منه رائحة الدواء والموت.. وزوجي المبتسم دائماً، جالس قرب السرير وينظر إلي بحنان أبوي.. أنظر إليه، أبحث في وجهه عن ذكرى بقيت من ذلك العالم الذي كان قد بدأ يولد من خلف أسوار الأفق.. أحاول استعادة منظر الضباب وشموس لامعة كالدموع تخترقه مُشَكِّلةً ذلك النسيج الكثيف من الأنوار والأسرار.. يبتسم بطيبة وهو يمسد على شعري..

- كم تصبحين جميلة وأنت مستلقية على السرير والجبس يحيط بجسدك كنسيج عنكبوت..

أضحك.. نسيج أنوار، نسيج عنكبوت.. نفس الشيء.. لكني أريد أن أتذكر كيف وصلت إلى هنا، متى بدأت أفقد السيطرة على نفسي والعالم، متى غمر النور كل شيء وصارت الحياة مجرد شعاع يمزق جسد الضباب الهائل..

أرى مروى تدخل الغرفة ضاحكة، تضع على طاولتي الشوكولا السويسرية التي تعشقها وشتى أنواع الفواكه قبل أن تعلن رأيها في الموضوع:

- هل أبصرتِ سندبادا ما يلمع في قبة السماء فأردت مطاردته بإصرارك المعتاد؟

- أردت فقط أن أقبض على شعاع يلمع كعينين خلف الدموع..

ينظر إلي باهتمام هذه المرة.. ثم يقول لمروى كمن يحاول أن يفتخر بكنز نجح في العثور عليه وسط جزيرة من الأفاعي:

- حبيبتي نمرة مشتهاة حتى وهي غارقة في بحار من الجبس..

ينقض على ثغري بالقبلات.. ومروى تضحك مستمتعة.. وأنا ألمح شعاعا خافتا يخرج ببطء من النافذة.. إلى أين؟ إلى أين؟

* * *

(6)

اقتنيت فستانا رائعا للسهرة، ومنذ عودتي إلى البيت لا أكف عن التفكير به.. لماذا أشتري فستانا وخزانتي عامرة بالثياب وأغلبها جديد لم يلبس؟ لماذا لم أشعر بالألم وأنا أخرج حاملة

كيس المقتنيات فأجد فتاة صغيرة ذات ثياب رثة تبيع الزهور في "ساحة الحمام"؟ لماذا اشتريت منها زهرتين ودفعت لها ضعف ثمنهما؟

أ لكي أشعر بلذةِ أرستقراطيةٍ وهي تقوم بعمل خيري؟ أم لكي أمنح هذه الفتاة فرصة للذهاب إلى أقرب محل وشراء شوكولا من النوع الجيد؟

وهذا الفستان الذي ألقيت به على السرير دون اهتمام، أي دور يلعبه في كتاب حياتي؟ هل سأتذكره لحظة موتي؟ أم أن لونه وثمنه ستمحوه ألوان وأثمان الفساتين الأخرى التي سأقتنيها في المستقبل؟ هل سيهمني فعلا الإعجاب الذي سوف يبديه زوجي بذوقي الرفيع؟ هل ستكون ابتسامتي صادقة وأنا أرتديه أمامه لأسمع غزله الطريف وامتداحه لرشاقة قدي وانتصاب نهدي كفتاة في الثامنة عشر؟ هل ستكون كلماته ذات نكهة مميزة أم أنها نصوص محفوظة لمثل هذه المناسبات؟

وهذه السهرة في بيت صديقه، لماذا أريد حضورها؟ متى سأقتنع أخيرا بأن كل هذا غاية في السخافة؟

أتناول ما تبقى من قناع المرأة الناضجة وأحاول تثبيته على وجهي لكنه يتساقط مهترئا، متعبا من الاستعمال المتكرر.. أرمي به بعيدا وأوجه نظرة شرسة إلى المرآة.. أحاول أن أحَدِّثَ المرأة التي أراها في الضفة الأخرى من الحقيقة.. تبتسم لي بمكر ثم، شيئا فشيئا، تشتعل ملامح وجهها وسط غمامات من الضباب والخوف..

- مما أنت خائفة؟
- أريد أن أعود إلى وطني؟
- وأين هو وطنك؟
- في مكان ما، خلف الغيوم..
- لطالما طاردت الغيوم بحثا عنه لكني لم أنجح في اللحاق بها..
- ستلحقين بها يوما وعندها، أرجوك، لا تتراجعي ودعيني أعد إلى وطني..
- يا مجنونة مع من كنت تتحدثين؟

يقتحم زوجي ضباب الغرفة.. مازال باهر الوسامة، وتلك النقطة الغامضة تحت حاجبه الأيسر تستمر في مضايقتي.. أنظر إليه ولا أصدق كم أحبه، وأحاول من غير اقتناع أن أفكر كيف ومتى سينتهي هذا الحب..

أشعر بيديه تداعبان ثغري، فأراها تتبخر من خلف زجاج المرآة متوسلة إلي بنظرة أخيرة أن أجد لها وطنها.. أريد أن أسأله عن طريقة ما للحاق بالغيوم لكني أتراجع أمام زحف أصابعه على وجهي كأنما لتمنحه بعضا من صفاء.. أتذكر قناع المرأة الناضجة، أراه مرميا في الزاوية، رثا ومستعدا للتلاشي، أبحث في دخان الغرفة عن قناع آخر فإذا بوجهه يلتصق بوجهي ويصير قناعا جديدا.. أدير له ظهري وألتفت إلى المرآة فأجدني امرأة أخرى..

- لن أستطيع أبداً التحكم بغيرتي وأنا أراك متأبطا ذراع هذه المرأة الخارقة، سائرا معها كأنكما ترقصان تحت وقع موسيقى صامتة وحدكما تسمعانها.. من أين أتيت بهذا الملاك يا صديقي؟

صديقه يظل شاعرا حتى في السهرات التافهة التي يملأ بها أوقات فراغه، أو بالأحرى: فراغ أوقاته.. تنتابني رغبة في الضحك وأنا أتذكر فجأة ما قاله ميشو: "قِدرٌ من الأفكار يعتقد نفسه إنسانا".. لكن نظرة مسحورة من زوجي تُنَوِّمُني كما العادة فأكتفي بارتشاف قبلة غامضة الذوق من ثغره المعطر برائحة السجائر.. وصديقه يحاول أن يضبط نفسه لكن دون جدوى، فينفجر كطفل:

- يا عزيزي، كن طيبا هذه المرة واسمح لي بمراقصة ملاكك..

يضحك زوجي إشفاقا ويسلمني لصديقه بطيبة الذي يمتلك كل شيء مع من يفتقد لكل شيء.. أنقاد كدمية تتلاعب بها أيدي الصغار وأرقص مثلها عندما يضغط أحدهم على زر في أسفل ظهرها..

موسيقى التانغو مثيرة، رائعة في استفزازها لبراكين الشهوة.. لكن فكرة الفستان والقناع الممزق والمرأة التي تريد الانعتاق من سجن المرآة للبحث عن وطنها، مازالت تعذبني فأترك مراقصي يتلاعب بجسدي الذي صار خفيفا فجأة ورياح نيسان الأخيرة تحمل أنفاسي إلى البعيد..

أبصر شهابا يختفي بسرعة خلف غيمة لامرئية.. التانغو يستمر في ترتيل قداسه المحموم تحت وقع الأقدام التي تسحق جسد الفراغ الموحش لتسري كهرباء الامتلاء في كامل الجسد الذي يبحث عن النشوة في دورانه حول الريح وانسيابه كقطرة ندى على غصن هائل في شجرة المدينة..

أحاول أن أفكر بكل شيء لكن "فريدريك" يصر على اقتيادي إلى لحظة التجلي التي يتلاشى فيها الجسد ويصير العالم سحابة غبار هائلة تدور بسرعة هذيانية إلى أن تتبخر ويعم الظلام..

زوجي يتسلل من الجمع بحثا عن الوحدة في طريق القمر أو ربما بحثا عن هند التي ستسافر بعد أسبوع إلى فرنسا، وحيدة خائبة كما تعلَّم أن يجعل النساء اللواتي يغامرن بالاقتراب منه.. فليجدها وليتحدثا.. أما أنا فالتانغو قد تحول إلى سفينة نوح التي تخوض غمار الطوفان للوصول إلى غيمة المنتهى..

* * *

(7)

داخل إحدى رواياته السرية التي لم يقرأها أحد سواي وتولستوي وقلة من الأصدقاء، أجد نفسي في بيت مهجور أبحث عن حبة غبار ضائعة.. لا أدري لماذا ولا أريد أن أفكر بهذا الجنون الجديد لكني أبحث عنها واثقة في مكان ما من داخلي أنني سأجدها في أية لحظة..

لا أنتبه إلى فلسفة الفراغ الذي يقود إلى نور سماوي بعد ساعات طويلة من التأمل الصبور، لا أهتم بحضور أموات الحرب والحب والخيبات المتتالية بين جدران هذا البيت، كل هذا جزء من عالمه الكتابي الغريب، بل أريد فقط أن أجد شيئا خارقاً، حَالَما ألامسه، يتبخر البيت والفراغ وأرواح الموتى والكِتاب.. شيء لا يفسر لكني أفهمه جيدا..

هناك امرأة تركض في الحديقة وراء جرو صغير يريد الهروب، فتتعثر في طريقها بفخ وضعته خصيصا للإيقاع بالذئب الذي يزعجها بحومانه حول البيت وعوائه الكئيب.. يتفجر دم غزير من ساقها، تنظر إلى جروها وهو يبتعد، تحاول أن تنهض ناسية آلامها لكنها تسقط عاجزة..

تدرك فجأة أنها سوف تموت بعد قليل إن لم يمر أحدهم ويخلصها من أنياب الفخ الفولاذية..ترتاح لهذا الاكتشاف، تلقي برأسها على الأرض ودموع خافتة تنحدر على وجنتيها.. وفجأة تلمح جروها عائدا من البعيد، يقترب منها ويحاول تخليصها من مخالب الموت فتنكسر أسنانه الطرية أمام عناد الفولاذ.. ينظر إليها كأن روح رجل من عصر ميت تسكنه.. ترى بعض الدموع المترقرقة في عينيه، تتخيل أنها إن فعلت شيئا ما سوف ينقلب رجلا وسيما يعيد رسمها في كتاب آخر وبيت آخر لا يسكنه الفراغ.. تبكي هي الأخرى وهي تشعر بالألم يخدر جسدها والروح، فتستسلم شيئا فشيئا لهذا النفق المظلم الذي يسرع نحوها كقطار مجنون..

تسمع عواءه المتألم فتفتح عينيها من جديد.. تنهض وقد سكنتها قوة جديدة، تختزلها في يديها البيضاوين وهاهي تنقض على فكي الموت.. وبإصرار محتضرٍ عنيد، تفتح الفم الفولاذي المطبق على عروق الحياة في كعبها الجريح، وبعد جهد لامعقول تتخلص منه.. ثم تهوي على التراب الرطب الدافئ مستسلمة لغفوة جميلة داعبت عينيها الدامعتين..

لا أسأل نفسي ما معنى كل هذا، حتى وأنا أقرأ في الصفحات التالية أنها ماتت وحيدة وجروها بالقرب منها ينتظر أن تفعل شيئا لتنفك اللعنة ويتحول إلى الرجل الوسيم القادر على إنقاذها..

لا أفهم ولا أريد ذلك.. ثم ينتابني خوف رهيب.. فأركض بحثا عن زوجي، لا أجده في البيت.. ألتفت فجأة إلى المرآة، أجد المرأة التي تبحث عن وطنها، تنظر إلي بحزن وفي عينيها تلمع توسلات غامضة..

- أين هو؟
- لا أدري.. لم تبحثين عنه؟
- وما دخلك أنتِ؟
- أريد أن أعرف ما سر الذي يجمعك به ويمنعك من البحث لي عن وطني..
- وطنك غير موجود سوى في خيالك المريض.. دعيني وشأني وتابعي بحثك لوحدك..
- مجنونة.. سأنتحر إن لم أعرف مع من تتحدثين في هذه المرآة اللعينة..

تحاول امرأة المرآة أن تفتح فمها لتقول له شيئا فأُسكِتُها بنظرة شرسة.. ألتفت إليه بخوف.. تجرحني تلك النقطة الغامضة تحت حاجبه الأيسر.. تفلت قبلات ظمأى من ثغري وتنقض عليه كسرب لِباء أفلتت فجأة من قفص ما..

أغرق في لحظة مفلتة من الخوف والألم، فجنية الليل

استيقظت وغمرت كل شيء بعوائها الحاد.. العواء.. الذئب.. لم الفخاخ حول بيت مهجور؟ لم الركض خلف جرو يريد العثور على حبة غبار ضائعة؟ لم العجز عن إطفاء اللعنة؟ متى بدأت تلك المرأة تكتشف سر وجودها؟ أ عندما تخلصت من أنياب الفخ أم عندما أفلتت روحها وحلقت بحثا عن حبة الغبار؟

وما معنى أن تبحث امرأة سجينة عن وطنها؟ تراها ستستمر في البحث عنه إن هي تحررت من سجن المرآة أم أنها سوف تنسى كل شيء وتعيش في عالمنا هذا دون أن تدري أنه مرآة أخرى، كبيرة بما يكفي لتقنعها بوهم الحرية؟

وجنية الليل التي تعرف جيدا أنها ليست سوى ملكة مؤقتة يبدأ حكمها مع أولى لفحات الشهوة ويندثر حين ينفجر بركان ما في مملكتها السرية.. لكنها سعيدة رغم كل شيء ربما لأنها تعرف أن كل ملوك الأرض حكام آنيون ولكنهم لا يدركون ذلك..

وهناك، على حافة نجمة لامعة، أقتنع أخيرا بما قاله أناتول فرانس: "لولا الوهم لماتت الحقيقة ضجرا ويأسا"..

* * *

(8)

أنا في المستشفى من جديد.. لم أعد أفرق كثيرا بين الواقع والخيال.. تلك الغيوم الملونة التي قادتني فجأة إلى أرض من بخار، ثم مسحت على وجهي لأنسى كل شيء عندما أعود إلى وعيي.. ومروى التي صارت تشكو لزوجي من استغنائي عن

خدماتها ولجوئي إلى أقراص "الإكستازي" القادرة على تحطيم صحتي أضعاف ما يستطيعه الحشيش.. وهذا القلق الصاخب الذي يرقص في عينيه.. وذاكرتي التي ترفض أن ترتب أثاثها لتعيدني من جديد إلى تلك الأرض.. وهناك دائماً هذا الجسد اللعين الذي يعلن عن تعبه في الوقت غير المناسب..

تسارعت نبضات القلب، كما أخبرني زوجي، وصرت أرتجف كشجرة وحيدة وسط العاصفة.. ثم رحت أختنق ببطء وكان لا بد من نقلي إلى المشفى.. وهنا، حقنوني بما يلزم لأعود إلى رشدي وأنسى كل شيء عما حدث هناك، في ما وراء الغيوم، على مشارف وطنها.. تلك المرأة التي بالرغم من كونها الآن مسجونة خلف مرآة البيت، مازالت تئن بصمت في أذني.. تتهمني بالخيانة.. تذكرني يوم تضرعَت إلي ألا أتراجع حين أجد لها وطنها..

لكني لم أتراجع.. بلى تراجعت.. فجسدي قطعة مني.. خانها كما خانني أنا من قبل.. جذبني معه في اللحظة التي كدت فيها أن أستغني عنه وأكتفي بخفة الروح وهي تتجول في حدائق الوطن الضائع.. واستسلمت كعادتي.. وصمَمْتُ أذني عن توسلاتها.. تركته يقودني إلى هنا.. وقد كان بوسعي التحكم بارتعاش نبضات القلب واختناق الهواء في رئتي.. لم أفعل.. خفت كما الآخرين من الموت.. وفضلت اللجوء إلى أشخاص بسترات بيضاء يبعثون طاقات الجسد والحياة ويطردون شبح الرحيل بحقنهم المنشطة.. يطردون الوطن إلى ما خلف الأفق.. يقتلون آمال المرأة السجينة

ويعيدونني إلى زوجي امرأةً كاملة، ملخصة في جسدها قبل أي شيء آخر.. والمصيبة، أنني أتنفس الصعداء لأنهم نجحوا في ذلك.. لقد خنتها.. وسأظل أخونها دائماً.. ولن أجد لها وطنها أبداً..

- تذكري يا عزيزتي أن الجنون خادم جيد ولكنه سيد خطير.

تعتقد مروى أنه الجنون.. متى اختلط كل شيء في رأسي؟ عندما بدأت بالدخول إلى جنات بودلير المزيفة، لم أكن أبحث عن شيء.. كنت أطارد الغيوم فقط لأشعر بمتعة الحرية المؤقتة والركض خلف السراب.. لم أكن أعرف امرأة المرآة ولم أهتم يوما بفلسفات الغربة والأرق الأبدي في هذا العالم.. كنت أسخر من ميشو عندما يستعين بالحشيش لاستكشاف "عالم الداخل" والكتابة عنه.. كنت أشفق على مناضلي فترة "الهيبي" الذين اتخذوا من الماريخوانا وسيلة لكفاح الأنظمة الفاسدة، ودواءا ضد "القرف الرسمي" (على رأي آلان غنسبرغ)...

والآن أجدني مثلهم تماما.. أبحث في ضباب الغياب عن سبيل إلى الوطن الضائع.. أدعي أنني أفعل ذلك من أجل المرأة السجينة.. لكني أعرف جيدا أنها أنا.. وأنني حين أجد لها وطنها سوف أبقى معها هناك.. ولن أعود.. وربما لهذا السبب، خذلتها وتراجعت...

- جبانة..

- نعم، معك حق.. أنا جبانة.. لكني أحبه.. هل تفهمين؟ أحبه..

- جبانة.. لم تقدري على التضحية بحب آني، تعرفين جيدا أنه

آني، في سبيل هدف نبيل، في سبيل الخلود.. جبانة..

أصرخ.. يقفز زوجي من مقعده.. يحاول أن يحتضنني.. لكني أستمر في الصراخ.. يظن أن جسدي يتألم فيستدعي الطبيب.. أصرخ.. يفحصني الطبيب ويقرر أن كل شيء على ما يرام.. لكني أصرخ.. يهمس الطبيب في أذن زوجي كلمات أسمعها رغم اختناقها: "المشكلة تكمن في أعصابها.. لا بد من استشارة طبيب مختص".. أصرخ.. يرفض زوجي قائلا أنني طبيبة نفسي.. فأصرخ.. ينظر إلي، يفاجئني هذا الدفق الجارف من الحب والشهوة في عينيه.. يعود ذوق شفتيه وحرارة الليالي المشتعلة على أرضية الغرفة قرب المدفئة إلى ذاكرتي... فأكف عن الصراخ...

- أنا جبانة.. ولكني سأحبه دائماً.. أما وطنك وخلودك فليذهبا إلى الجحيم.

* * *

(9)

يمر القطار بسرعة أمام عيني.. تبدو لي الوجوه التي يشقها المطر على زجاج النوافذ متلاشية ومقفرة من الحياة، يرن صوت مروره في أذني ويختلط بصخب الموسيقى التي تعم البيت في هذه اللحظة..

عيد ميلادي.. كم يبدو هذا مضحكا.. ألح علي زوجي في أن نحتفل به بمفردنا، في الحديقة تحت شجرة الليمون، وضوء القمر.. لكني سخرت من أفكاره المهترئة واتهمته بالرومانسية..

نعم، الرومانسية صارت وصمة عار في زمننا..

صممت على دعوة كل الأصدقاء.. على إرغام "تولستوي" وإدوارد وزوجته على المجيء.. كنت أريدها حفلة هستيرية، تتطاير شظاياها في كل الاتجاهات لتشعل سماءنا المقفرة ويرقص كل العالم على إيقاعات الجاز والكاونتري والهارد-روك..

بصعوبة كبيرة، نجحت في إطفاء الشموع الثلاثين التي زينت كعكة الشوكولا ببريقها الوهاج وثبات نيرانها رغم نسائم الهواء القوية التي ما انفكت تداعب الحديقة طوال الليل.. وبصعوبة أكبر، قمت بغرز السكين في أسفل عنقي على الكعك الذي طُبِعَت فيه صورتي على شكل فسيفساء من الآموندا والكراميل والفواكه.. جززت عنقي ثم صرت أجزئ وجهي إلى قطع حلوى أوزعها على المدعوين.. إدوارد حظي بعيني، وتولستوي التهم جبيني أما زوجي فقد خصصته بثغري.. وتركت للآخرين حرية الانقضاض على ما تبقى..

- لن نصدقك أبداً يا عزيزتي، لا أنت ولا هذه الشموع الثلاثين التي أطفأتها للتو.. وجهك يضاهي بجماله ونضارته وجه صبية في الثامنة عشر أما جسدك فلا عمر له.. وأنت، أيها الأحمق، هل تصدق فكاهة الثلاثين هذه؟ أنت الذي تعرف أكثر منا جميعا واحات زوجتك وكنوزها الخفية؟

صديقنا الشاعر رغم بلاهة ارتجالاته العابرة كسحابة صيف، يبقى دائماً خفيف الروح ومحبوبا من طرف الجميع.. يبتسم زوجي كأنه يسخر من هذا الخطاب المطول ويهزم دماثة صديقه ببضع

كلمات:

- ثلاثون أم خمسون شمعة، لا يهم.. كل ما أعرفه أن الشموع تنطفئ مثلنا جميعا أما هي فستبقى مشتعلة إلى الأبد...

قبلة الدقيقة الأولى بعد الثلاثين.. شعرت بها عميقة ومثقلة بالذكريات.. ارتشفتها كحبة مطر.. ثم رحت أتأمل القطار مبتعدا بوجوهه الممحية وأزيزه المؤلم...

أرقص كدمية سكنتها فجأة روح امرأة مجنونة.. يتموج جسدي مع موسيقى "جان غارباريك" ويتطاير في الفضاء مشَكِّلا سحابة مشتعلة تحت صراخ فرقة "السكوربيون" وأغنيتهم الرائعة: "رياح التغيير".. أتغير أنا الأخرى وأصير خفيفة كنسمة، وقد امَّحَت ذاكرتي فجأة وعدت طفلة في الثالثة من عمرها، تركض خلف الفراشات ووالدها ينظر إليها بحب.. فتسأله بالبراءة التي لم تفقدها بعدُ آنذاك: "لماذا تهرب مني الفراشات؟".. يجيبها ضاحكا: "لأنها تخاف أن تحرقيها".. "لكني لا أريد إحراقها".. "دون أن تريدي ذلك يا صغيرتي.. أصابعك عيدان نار، عيناك بركتان من الحمم، شعرك غابة مشتعلة، أنفاسك تحرق كل شيء... هل تفهمين الآن لماذا تهرب منك؟".. تضحك الطفلة وقد اكتشفت فجأة أنها لم تعد طفلة.. تريد أن يكبر جسدها بسرعة لتستعيض عن الفراشات الجميلة الهاربة بإحراق رجال مجوسيين سيكونون هم من يركضون وراءها وليس العكس...

يعود جون سكوفيلد ليسيطر على الجميع، فتهتز الحديقة، تحت وقع أصابعه، وقد صارت داخل ساكسوفون ضخم يعلمنا

جون عبره كيف بإمكاننا الطيران والانتشاء والانفلات دون أجنحة ودون جنس ودون حشيش.. كل ما علينا فعله هو الاستسلام لقداس الأصابع السحرية وهي تمارس الحب مع دقات الآلة لينفجر بركان في مكان ما، هناك، حيث الجنة تتلخص في سهرات كهذه دون شموع يزيد عددها كل عام، دون مدينة تتحين ساعات الصباح الأولى لتستيقظ وتملأ الشوارع بالأنفاس الكريهة وضجة الفراغ...

أرتجف بين أحضان زوجي الذي يقود جسدي إلى تلك اللحظة النورانية حينما تتدفق النشوة حمما خالدة على قفار العالم.. نمارس الحب راقصَين.. والجميع ينظر إلينا كأنهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن أقذف بثمار اللذة على عشب الحديقة.. يعلو التصفيق.. أصرخ كمن يتضرع إلى السماء أن تدوم هذه اللحظة ألف أبدية وليلة.. يتسارع العالم في ركضه خلف القطار الهارب.. تتسارع أنفاسي ويدور كل شيء.. يرقص الفراغ وقد تجسد فجأة.. وترقص فراشات الليل في حركات دائرية متسارعة.. ينبلج نور تحت قدمي، يلامس وجهي فيصمت كل شيء... ولا تبقى سوى الأصداء..

* * *

(10)

لماذا لا أكتب؟ ثلاثون عاما مرت الآن ولم يعد بوسعي الهروب أكثر من نزوات المرأة المعَمِّرة.. ثلاثون عاما تستحق أن

ننصب لها ضريحا في معبد الأدب ليخلد وهجها حتى بعد أن يأتي "بروميثيوس" ما ليسرقه من آلهة الأولمب..

لم لا أكتب؟ لم لا أفعل ذلك دون أن أفكر كثيرا، دون أن أحسب ألف حساب لتصرفي هذا؟ سأتتبع كفي وهي تزحف على رمل الكلمات وأدعها تضيع في الصحراء دون أن أكون معنية حقا بذلك.. سوف أزدوج مثلهم جميعا.. مثل زوجي الذي يغلق على ملفاته بكلمة سر.. يقول أن روح كاتبة تسكنني.. لا بد أنه على حق.. لطالما نجح في قراءتي وسبر أغواري حتى أنني أفكر أحيانا بأنه يعرفني أكثر مني.. فلماذا أنكر تكهناته الآن؟ هل أنا خائفة؟

أعرف أنني إن دخلت في متاهة الكتابة، سوف ألهو عن العالم بأسره بعدها.. تماما كمروى التي أهملت زوجها مذ حصلت على طفلها الأول.. هل سأنسى زوجي عندما أرزق بروايتي الأولى؟ هل سيكف الحب عن إحراق كل ما عداه في سماء البيت؟ هل ستنتزعني الكتابة من نفسي ومنه؟ هل سأخسر الغيوم والشموس الدامعة وسط السماوات الرمادية إن أنا كتبت عنها؟

ولكن نتشه لم يخسر شيئا من ذاته وهو يكتب عن فلسفته الزرادشتية.. وزهور الألم لم تزد بودلير إلا التصاقا بروحه الجامحة بل وضاعفت من قدرته على امتطائها ركضا خلف السحاب دون أن يسقط ولا حتى أن يتوقف ليرتاح.. والكتابة عن الذات المتعددة لم تخرب عالم بيسوا بل زادته جمالا وكبرا.. أما همنغواي فحالة شاذة: غبي خسر ذاته لأنه خسر الكتابة...

أعرف أنني سوف أنجح في رسم مدينتي الداخلية على الورق.. وربما ستنجح الكلمات في ما أخفقه الحشيش وستقودني أخيرا إلى الوطن.. وهي؟ ما رأيها في كل هذا؟ لا أدري.. لقد صمتت مذ خذلتها آخر مرة ولم يعد وجهها يطل من المرآة ليزعجني بتوسلاته وحنينه إلى وطنه.. والآن، يزعجني صمتها، يقلقني.. تراها ماتت؟ هراء.. لماذا أتوغل في لعبة الضمير الغائب السخيفة هذه؟ لماذا وأنا أدرك جيدا أنها أنا.. وأن سراب المرآة ليس سوى طريق ملتوية لمخاطبة نفسي.. والأخرى، هل هي أنا كذلك؟ تلك التي تفهمني ووصفتني في آخر مرة بالغبية؟ لم أعد أجدها في المواقف الحرجة.. تعبت هي الأخرى من حماقاتي ونامت في ركن معتم من دهاليز الصمت..

يصمت كل شيء من حولي.. وتبقى الكلمات.. مستعدة دائماً لاحتواء الأرق والخوف والآمال الساذجة.. دائماً حاضرة لتحَرِّك دولاب الفكر الصدئ وتقوده لأقرب هاوية.. نكتشف في قعرها ذلك الشيء الغامض.. شيء لا اسم له ولا ملامح، لكن له حضور.. حضور مستمر، أبدي، سيمفوني في الشق الفاصل بين الوعي واللاوعي، بين السأم والرغبة، بين الكل واللاشيء... حضوره يقتلني.. وربما، عندما أكتب، عندما أصل في كتاباتي إلى نقطة اللارجوع، سوف أنزلق مع الهاوية وسوف أعثر عليه في أسفل القاع...

- تتعاركين مع نفسك الآن، أليس كذلك؟

نعم، لا شك في أنه يعرفني أكثر مني.. هاهو يخمن الآن ما

يدور في أحشائي وكأنه نائم بداخلها.. هاهو يقتحم الوحدة وأوجاع الحيرة كعادته لينقذني من أبواب الجنون التي بدأت تنفتح واحدة تلو الأخرى، ويرشدني إلى الحل.. هاهو يناولني قلما وورقة.. وكما الملاك الذي قال للنبي محمد في غار حراء: "اقرأ".. يهمس لي بعد قبلة إلهية على العنق: "أكتبِ".. وهاأنا أكتب.. بلا وعي وبلا تفكير.. أكتب تماما كما أتنفس.. تلفحني أولى نسمات الجحيم الجديد على وجهي ولكني أستمر في الكتابة.. وأستمر في التنفس.. ما ألذ هواء الجحيم.. وما أسخف كل شيء..

* * *

(11)

"لمن هذه النظرة التي تطل من خلف عيني؟ عندما أفكر بأنني أرى، من يستمر في الرؤية بينما أنا مشغول بالتفكير؟ من هذا الذي يرصدني ومن أية نقطة يفعل ذلك؟"

معك حق يا صديقي.. هناك دائماً عين أخرى ترصدنا وتستغل لحظات الغفلة التي ننشغل فيها بالتفكير الساذج بينما هناك، في الطرف الآخر من الذات، في الطرف الغارق تحت مياه اللاوعي، يوجد كائن آخر يتجسس علينا.. كائن هو نحن ولكنه غريب.. قطعة منا لكننا لا نشعر بها غالبا، وعندما يحدث ذلك: نتألم ونبدأ بطرح أسئلة عاجزة..

نظن أحيانا أنه عدونا القدري فنحاربه ونحاول القضاء عليه،

لكن صمته وحياده يقنعاننا بسهولة أننا نغرز السيف في جسد الهواء.. وأحيانا نظنه حارس الديار عندما نغفل أو ننام أو ننشغل بتفاهات أخرى فنرتاح ليقظته وسهره على استمرار الآلة في عملها.. ولكنه مرن كالزئبق.. وربما كنحن.. يتغير دائماً، يُبَدِّلُ أدواره ووجوهه وإدراكه وفقا لمنطق نعجز عن فهمه.. يتحول فجأة من وزير الداخلية إلى قائد أركان الحرب، ثم يصير عميلا لدى أجهزة العدو (الذي لم نعرفه يوما) ثم عضوا في حركة عدم الانحياز ثم مناصرا للحروب الأهلية التي تزلزل كياننا وممولا لها بالسلاح والمؤونة، وكثيرا ما يختفي فجأة من الساحة فنشعر أن حدودنا الأرضية مع بلاد الماوراء، هناك حيث تسافر الغيوم، قد غرقت فجأة وصار البحر البركاني يفصل بيننا..

والصداقة كما الموت مستحيلة مع هذا الراصد الزئبقي.. خيارنا الوحيد هو الانصياع لتقلباته المزاجية وانتظار لحظة ما، يكف فيها عن النظر ونكف نحن عن التفكير.. ترى ماذا سيحصل حينها؟

- لا تقرئي بيسوا كثيرا.. سوف يثبط عزيمتك وستبتعدين شيئا فشيئا عن الكتابة.

- لماذا؟

- لماذا؟؟ لأننا إن قرأنا جميعنا لبيسوا بمثل إصرارك وهوسك، فلن يبقى على الأرض كاتب واحد مازال متمسكا برغبته في الكتابة.. هذا إله يا حبيبتي.. وكل من يحلم بكتابة قرآن جديد، سوف يصاب فورا بـ"الأفازيا الكتابية"..

- ألن يستطيع أحد التفوق على بيسوا يوما ما؟

- بوصفي متخصصا وذا تجربة متواضعة في مجال التكهن، أعدك أن ذلك لن يحدث أبداً.. فأرجوك، دعي "لاطمأنينته" جانبا واكتبِ..

نعم، سوف أكتب، وهل لدي خيار آخر؟ أكتب في انتظار أن يكف كل شيء عن أن يكون نفسه.. وحينها سوف نضحك من أرسطو ومبادئه السبعة.. لا يا عزيزي، أنت مخطئ: أَلِف هو أَلِف ويمكن أن يكون لا ألف أيضاً.. لم لا؟ أخبرني، لم لا؟ وغالبا ما يكون الجزء أكبر من الكل ولكننا نتجاهل ذلك كما تجاهلته أنت كي تبني منطقك الوهمي.. أما معرفة الذات فقد استغنى عنها الجميع لكثرة المشاغل..

وحده بيسوا كان على حق حين كشف لنا الغطاء عن كل شيء وهو يصرخ: "هناك دون أدنى شك من يعشق اللانهاية.. وهناك دون أدنى شك من يحلم بالمستحيل.. وهناك دون أدنى شك من لا يريد شيئا على الإطلاق.. وهذه ثلاثة وجوه للمثالية.. أما أنا، فأحب لانهائيا النهاية وأحلم بالممكن حد المستحيل.."

ثم يأتي صديقنا الطيب الذي يعتقد نفسه شاعرا لينشد لي في عيد ميلادي: "لا بد أن الأرض تكف عن الدوران حين ترقصين.. فلا طاقة لها على الاستمرار في رقصها بينما تجمِّدين عروقها بعنف الجسد ومن مسامه يتسرب نفاثا عطر الياسمين"...

الله.. الله.. ما أجمل الشعراء حين يشفطون ذاكرة قراءاتهم

وينسون لحظة يكتبون ما قاله العظماء.. ولكن، ألا أفعل ذلك أنا أيضاً عندما أكتب؟ وزوجي كذلك؟ كلنا سواء بسواء..

لا حاجة لوصف لحظة الإلهام بالفلسفات والترانيم الشعرية.. إنها ببساطة لحظة نسيان.. لا السماء تلهمنا ولا الشياطين.. نحن نكتب عندما ننسى حقيقتنا المرعبة: لقد ولى عهد الانفجارات الأدبية والروايات التي تقلب التاريخ والقصائد التي تقود البعض إلى الانتحار والبعض الآخر إلى تغيير كل شيء في أثاث حياته.. كل الكلمات قد كُتِبت الآن.. باب الروائع الأدبية أغلق إلى الأبد.. وكل ما نستطيعه هو اجترار روايات الماضين وقصائدهم بقوالب جديدة وتعليقها على جدران الشارع المظلم، حيث لا أحد يمر، ولا أحد يقرأ...

* * *

(12)

ينتابني الحب أحيانا كوجع الأسنان في الوقت الذي يكون زوجي فيه غائبا أو غاطا في نوم غامض تهمس لي أحلامه النبوية أنه لا يجب علي إيقاظه من أجل انتشاء عابر.. لكن وجع الأسنان يصرخ هو الآخر ويزداد ضراوة عندما أحاول نسيانه وأنا أتصفح كتابا أو أتفرج على مسرحية رديئة في التلفاز.. تعود إلي نصيحة كازانوفا الثمينة: "سارعوا بالاستسلام للغواية قبل أن ترحل".. والغواية مستلقية في الغرفة المجاورة، تقرأ كعادتها على ضوء مصباح خافت وتنصت لموسيقى شوبان الذي انتقلت عدواه

من زوجي إلى كل الذين يعرفهم..

ليست الأشياء كما تبدو عليه من السهولة والبساطة.. الأصوات المتصارعة في الداخل ومحاولات الذات الأخرى أن تفرض بعض النظام على الفوضى العائمة وصمت الجهة المحايدة، المتعبة، القرفة من كل شيء.. كل هذا يكبل قدرة الذات الخالصة، التي تعرف جيدا من هي وماذا تريد، ويمنعها من أن تقول كلمتها في الموضوع.. تراها مازالت موجودة حقا؟ أم أنها انصهرت مع الأخريات ولم يبق من صوتها سوى بعض الأنات الخافتة ولم ينج من روحها سوى صور باهتة لذكرى منفية إلى ما لا رجعة..

لا يبقى لي إذن سوى انتظار أن يحسم أحد المتخاصمين الأمر لصالحه وأنقاد أنا كجندي مستعد دائماً للحرب التي يقررها القادة.. أنتظر وأنظر لوجهه المحلق في العتمة، يختلط نوره بضوء القمر لتتشكل هذه السحابة السرية التي تحاول أن تمسح على وجهي وتخلصه من أدرانه.. لكن عبثا.. فالنور الشفاف الخفيف يخاف دائماً من صخب الأصوات الحادة المثقلة بكل أوساخ الكون.. يهرب إذن ويترك للظلام فرصة أن يحتوي الفوضى والصراخ لتأتي أخيرا تلك اللحظة المشتهاة: النيرفانا..

وعبثا أحاول اتباع تعاليم بوذا، بدءا من الحقائق النبيلة الأربع مرورا بطبيعة الذات والانهيار والحركة وانتهاءً إلى السلام.. لكني أفاجئ نفسي في لحظة نفاق عارية: لطالما سخرت من بوذا وتعاليمه؛ ربما لأنه يقصي جنية الليل إلى جحيم الانهيار ويفرض علي "ملائكة مزعجة" (على رأي ميشو) لأنال الخلاص.. لم أكن

يوما من عشاق فلسفة الزهد التي تخنق الأنفاس المبدعة بداخلنا لتجعل من حلم الحرية حلما قابلا للتحقق.. ربما لم أؤمن بعد بأن الحرية تقع في مرمى يدي لكني أعرف أنني لن أنالها أبداً بدون أصوات الغابة والصراخ الحيواني الذي يصطخب الآن في أحشائي..

يصبح كازانوفا فجأة أكثر قربا من الحقيقة من بوذا.. وأجدني أتبع نصيحته مع ظلال النور الخافت المنطلق من تلك الغرفة والذي يرسم لي سبيلا ضيقا كالسراط، أمشي عليه محاذرة السقوط في بقع العتمة.. كما لو أن البيت كله صار هاوية يختبئ الجحيم في قاعها.. كما لو أن خيط النور هذا هو السبيل الحقيقي والوحيد للنيرفانا..

تتموج "مازوركا" شوبان بتناغم إلهي مع أصوات الليل وأغاني البيت المجاور وهمهمات العشاق المختبئين تحت أغطيتهم وأنفاسهم الحارة من برد الموت والسأم.. تراودني رغبة، كوسوسة شيطان، في العودة أدراجي والنوم.. لكني أتابع التقدم نحو منبع النور، وجنية الليل تتهيأ للانقضاض حالما أفتح باب الغرفة، وامرأة المرآة تحاول أن تقول شيئا لكنها تصمت كعادتها منذ شهور.. أقترب بخطى يشبه وقعها حفيف شجرة وهي تمارس الحب مع الريح.. ألامس مقبض الباب بيدي فيخيل إلي أنه يتحول إلى ماء ذهبي حار.. أحترق، ببطء، بنشوة الاقتراب من الشمس.. تعاودني الرغبة في الرحيل، خارج بقعة النور هذه، خارج البيت، إلى الشارع، إلى الليل وأسراره المعتقة في

زجاجات تقطنها المصابيح وخمور الآلهة.. لكني أستسلم آخر الأمر وقد نسيت ألم الأسنان ولم يعد يشغلني سوى الوصول إلى نهاية خط النور المنبثق من شق الباب...

لكن الأشياء التي يلدها الصراخ ويصهرها الجنون تنتهي بين يدي الخيبة لتعيدها إلى صمتها الأول، إلى حقيقتها الأولى: العدم... فتحت الباب أخيرا حين صار جسدي كله متفتحا لاستقبال أمطار اللذة المحرمة.. لكن إدوارد كان نائما وعلى جبينه ترقص بعض الضحكات الشامتة وفي ثغره يختفي سر كنت أنوي اكتشافه هذه الليلة...

* * *

(13)

هناك شيء يقنعني وسط هذا الفراغ العظيم بأن الوقت لم يحن بعد لأصرخ يأسا وأطالب الله بحل عادل ونهائي.. هناك خطوة لم أخطها بعد في الطريق إلى الوطن.. هناك فكرة لم تولد بعد في رأسي لتقنعني ألا شيء بعدها يستحق البقاء من أجله.. هناك رجل تزوجته لكني لم أكتشفه بعد من بدايته إلى مطلقه.. هناك الحب الذي يعلن تدريجيا عن السر المحرم.. وهناك الخطايا التي لم أرتكبها بعد.. هناك المرأة التي مازلت أفشل في أن أكونها.. هناك الحياة التي يجب أن أثبتها لنفسي وللمجهولين، لِلَّيلِ وللذاكرة...

تعاودني الصباحات مستسلمة لنغم مستمر إلى ما لانهاية،

يتكرر أنين النجوم في كل ليلة وضوءها يرقص على نفس التعاويذ، والأسرار تسافر على متن السراب ذاته، إلى العدم نفسه..

ولكن التفاصيل الصغيرة تهمس لي ضرورة الانتظار.. ففي بقعة ما من الكون، توجد الذكرى الوحيدة التي أحاول استحضارها مذ قدومي إلى العالم.. والكلمة التي تحارب لتخرج أخيرا من رحم الغياب وتنشر في كل مكان لحن نبوءتها الأخيرة..

صارت لأمي مكانة غريبة في ذاكرتي منذ انتهائي من الرواية الأخيرة.. عالمي لا يحب اليتم.. وشيطاني يرفض الاستغناء عن منبع يدين له بالوجود.. أما الجسد فحيلة أنيقة للالتصاق أكثر بأوهام الحياة.. والموت موجود دائماً لكنه يتخفى تحت أزياء كثيرة.. ومنها الأقنعة ووجهي الذي صار كوجه العالم: يتراوح بين الألوان كلها ويسافر إلى النهاية متوكئا على عصا الانتظار وحمى الشهوة الأبدية..

زوجي يفكر هو الآخر بما يجب فعله للانتماء إلى وطن جديد نخترعه ونؤمن به، لكنه يصمت كعادته عندما تبلغ أحلامه درجة معينة من الجنون والاستحالة.. يحاول أن يشغل فكره بأشياء أخرى لكنه يعود دائماً إلى مسألة الحياة.. ربما يؤلمه هذا الإحساس الدائم والمطلق بأن حياته لم تعد حقيقة لا طعن فيها بل صارت حادثة لا بد من امتلاك الإثباتات الكافية للاقتناع بوجودها.. يلمس جسده فلا يقتنع.. ينظر إليه في المرآة لكنه لا يقتنع.. يحادث الناس ويحادثونه لكنه لا يقتنع.. يمارس تفاصيل

الليل العادية فلا يقتنع..

ألاحظ أن كل هذا لن يسمح لنا سوى بالتوغل أكثر في جهلنا بما يحدث.. أما ما حدث في الذاكرة الأخرى فوحده قادر على إثبات الحياة أو نفيها..

والأوراق كلها تطير إلى هناك محملة بالكلمات وعلامات الاستفهام والنقاط الممتدة إلى آخر المنتهى والمساحات البيضاء وحنين اللغة إلى ما يوجد فوقها وسئم الشعر من أسمائه وذاكرته..

كل شيء يحاول الوصول إلى ما هو أبعد منه، أكبر من حقيقته الوهمية، أسمى من قامته القصيرة.. وكل ذكرى تصرخ بألم: "لست أنا، بل الأخرى، تلك التي لم تحدث هنا، بل هناك.."

والجنون وسط كل هذا يظل صامتاً، محايدا وبعيدا..

* * *

(14)

يوما بعد يوم، نشعر أن هناك نارا بدأت تخفت فينا.. تسلم أسرارها وبعض النصائح التي قد تفيد لكائن جديد جاء ليحل مكانها: السأم.. تخبره عن أمزجتنا وأنواع جنوننا وأحلامنا العابرة والأخرى: المصرة على التحقق.. تنصحه بعدم التدخل كثيرا، وترك كل شيء على حاله حتى نتعود على وجوده واختفاءها.. وقبل أن تنطفئ إلى الأبد، تهمس له هذه الكلمات: "حذار أن تستفزك طباعهم الغريبة.. ابق كما أنت.. رثا، متهاويا، صامتاً

وشبه ميت.. سوف يتعبون يوما وينزوون تحت ظلك، إلى الأبد... وداعا"

ويوما بعد يوم، يحدث كل شيء كما توقعته الشعلة المحتضرة تماما.. يزول ولعنا بمطاردة الغيوم، وتختفي هذه إلى الأبد عندما تدرك ألا جدوى من وجودها.. تصير التفاصيل التافهة سيدة على كل شيء، وتتضاعف سطوة العادة والأشياء اليومية التي تملئ حياتنا إلى أن تصير هذه الأخيرة تكرارا رتيبا وأبديا لنفس الشريط.. عندما نكتب، نجد أن كل كلمة هي مجرد صدى باهت للتي سبقتها.. وكما قال مالارمي: "الحواس حزينة للأسف.. وقد قرأتُ كل الكتب"..

ولكننا نتجاهل كل هذا ونستمر في السفر.. نطارد ما تبقى من أشلاء الغيوم ونبحث للمرأة التي نظل نتخيلها خلف المرآة عن وطن غير موجود.. نستمر في كل شيء.. حتى الحب.. الذي يبدو مثلنا غير مصدق لما حدث ويكافح بما تبقى له من شظايا محتضرة ليحافظ على سيادته ويمنعنا من الانهيار.. ولا ننهار.. بل نتفتت ببطء.. تماما كـ"إيفا" في روايتي الثالثة التي رفضت الانتحار عندما علمت بمرضها.. وآثرت رؤية جسدها يذوي في إحدى المستشفيات كموال طويل يرفض لفظ أنفاسه بين أجنحة الصمت...

ويستمر القطار في مضيه إلى حيث لا ندري وقد صارت الوجوه تظهر لنا جليا خلف زجاج النوافذ بعد انقشاع المطر.. وأية وجوه.. ملامح متداخلة تكَوّن في نقطة ما عينا ضخمة لتنين

خرافي أو فما هائلا لوحش مرعب يتهيأ لالتهام كل شيء.. ولا يلتهمه دفعة واحدة بل يتلذذ باستعمال السكين والشوكة في تقطيع الأحشاء والأشلاء والعظام الطرية.. ويبذل جهده كي لا يصل إلى القلب بسرعة..

وتستمر الصورة في انعكاسها على سطح الماء كما عرفناها دائماً.. ولكننا نتجاهل، أو ربما نجهل حقا، أنه تحت المياه، توجد مدينة من العفن والجيف والرماد، على حافة الانهيار، لكنها تتماسك... تستمر في تحمل ثقل صورتنا الناصعة لنراها بوضوح ونطمئن لذلك.. يستمر كل شيء كما كان، ولا شيء يشبه ما كانه حقا.. لكننا نستمر في الطمأنينة رغم صراخ الخيام: "ظل خيال.. ظل خيال.. ظل خيال.. ظل خيال.. ظل خيال"...

أصـــداء

(1)

غارق في أوراقه كالعادة.. وحيدا في بيت يذكره بأشخاص لم يعرفهم لكنهم يحيون في ذاكرة لامنطقية، مرتبطة بحياة أخرى، بعصر آخر.. يبحث في الجدران والستائر عن حبة غبار قد تقوده إلى هناك.. ثم يتذكر روايته الأخيرة، ومشكلة الرجل الذي يريد أن تسمع زوجته وقع خطاه وهو يغادر الغرفة والبيت ليلا، ولا يدري لم يريد ذلك بما أنه اختار الرحيل خلسة.. وهاهو الآن يتمنى لو تستيقظ زوجته وتتوسل إليه ألا يرحل، فيرمي بحقيبته بعيدا ويضمها إليه.. ثم تعاوده فكرة السفر فيقبلها بسرعة ويأخذ أغراضه ويرحل.. ما هي الفكرة التي يريد أن يكتشفها بوضوح عندما يحدث كل هذا ويمشي الرجل وحيدا في الطريق المؤدية إلى محطة الميترو؟ متى بدأت الأشياء تختلط في ذهنه؟ وإلى أين يريد الذهاب؟

يفكر ببعض الكلمات التي سيبدأ بها وصف حالة هذا الرجل عندما يباغته رنين الهاتف.. ينظر إليه متمعنا ويفكر كعادته كيف ستكون ردة فعله إن كان المتصل والده يريد منه أن يحضر لينهيا لعبة الشطرنج؟ وهل سيتخلى عن كل شيء ليلحق بالمعركة؟ وماذا لو كانت "هي"، تطلب منه لقاءا على ضفة النهر؟ هل سينسى الرجل وزوجته النائمة ليذهب إليها ويجد في عينيها طريقة ما

للخلود؟

هناك في أقصى الغرفة، نافذة تطل على الشارع من قمة شاهقة.. لماذا لا ينهي كل شيء ويقفز منها ليختفي في الضباب؟ روايته متمردة والنساء غريبات الأطوار، أما الشطرنج فشعور عابر بلذة قيادة الحرب.. كل هذا مجرد ألوان تنجس جدار الكون.. والضباب وحده يعرف كل شيء لكنه يصمت.. لماذا لا يشاركه صمته؟

- ألو نعم.

- لقد حصلت على رقمك من صديقنا ستيف، هل أستطيع أن أراك؟

ليس والده وليست "هي".. يتعرف على الصوت من أول كلمة لكنه يتجاهل أوهام ذاكرته ويقرر فجأة أن هذا الصوت هو صدى بعيد لصوتها..

- من معي؟

تضحك، ويتعرف على ضحكتها أيضاً لكنه يتجاهل ويترك فسحة للصمت حتى تقتنع أنه لم يعرفها..

- امرأة كانت تحب وقع خطاك عندما تغادر البيت وتختفي مدة شهور..

الذاكرة تنصب فخاخ الشك كي نكتشف دون مفاجأة ولكن بألم غريب أنها لا تخطئ الماضي أبداً، وأن الأصوات والضحكات منقوشة على جدرانها رغم مرور الحقب وجيوش النسيان المتعمد.. لم يعرف أننا عندما ننسى متعمدين فهذا يعني

أننا لم ننس شيئا على الإطلاق..

- أكتبِ العنوان عندك.. أنا في البيت.

يشعر برجفة تسري في صمتها.. يملي عليها الطريق إلى الهوة المظلمة ويقفل الخط وقد زادت رغبته في الكتابة..

إذن فالرجل يريد الرحيل ليكتشف كيف أن أشهرا سيعيشها بعيدا عنها لن تنجح سوى في إضرام تعلقه بها وبالبيت.. والميترو سيكون كحبل يحيط بعنقه، تمسك هي بطرفه دون أن تجذبه إليها واثقة من أنه سيعود أدراجه بإرادته.. إذن فهي تسمع خطواته لكنها تتظاهر بالنوم وتبتسم كامرأة تشعر بأولى ذبذبات اللذة الخافتة وهي تركض على جسدها.. أما الليل فيبدو على علم بكل هذا لكنه يحاول أن ينام..

هاهو يفتح لها الباب دون أن يكون واثقا من أنها سوف تدخل الآن وتضيء بيته المظلم بزمرد عينيها.. لا، لم تتغير.. بعض السنوات التي مرت عليها من دونه تمشي متثاقلة على جفنيها وجبينها لكنها لم تتغير.. مازال الزمرد يلمع مستفزا، جريئا من نافذتي عينيها، مازالت أسرار الغابة تطل من حين لآخر من ظلام شعرها ومازالت نصوص غريبة تركض على مساحة وجهها الشفاف.. لم تتغير نكهة ثغرها الممتلئ ولا حرارة اللعاب الذي يجري كنهر في عروق الروح ليبث فيها كهرباء سرية لذيذة التموجات.. لم تتغير رائحة الجنة التي تنطلق من جسدها ولم يتغير لون الشموس الصغيرة التي تنتشر على عنقها..

كان اسمها جولييت ولم يتغير.. كانت نظرتها قادرة على

اختراق جسده والتنقيب فيه عن طاقات الخلق والإشباع، ومازالت كذلك.. كان شغفها بكتاباته ريحا تنفخ في جمر الكلمات فيشتعل ليحرق فزاعات الغباء والسأم التي تعشش في روحه.. كان منظرها وهي تتجول في البيت يتسلل إلى أعماق الوحدة والصمت لينشر فيها سيمفونية هادئة تقنعه أن الحياة امرأة تسير بهذه الرشاقة على حبل رفيع معلق بين الفراغ والفراغ.. كانت جلستها الدافئة على أريكة الصالون تذكره بلوحة "الأوداليسك العظيمة" لآنغر وقدرتها على استفزاز الحواس وإيقاظ الأحلام النائمة..

كل هذا لم يتغير.. لكن شيئا كان يمنح لكل هذه التفاصيل نكهة الخلود قد تبخر الآن.. تكفلت به السنوات ووحشية امرأة جديدة يعرف أنها ستكون الأخيرة.. أتعبه مرض الغياب والاستحضار اللامجدي لذكريات حارة في الليالي الباردة.. قفزت جنية من أعماق الجحيم وجعلته يندثر دفعة واحدة بلفحة ساخنة من أنفاسها.. شيء لم يعد موجودا الآن وبدونه لا معنى لوجودها في هذا البيت.. شيء اسمه الحب..

* * *

(2)

- متى ستقتنع أخيرا أيها الطفل الكبير أن ذاكرتي مثقلة بالخيبات ولا أريدك أن تصبح واحدة منها؟

رحلت امرأة الماضي ومعها الحب وجاءت هذه الجنية لتجعله يركض وراءها حتى تقبض عليه.. يبتسم مستمتعا ببراءة المشهد

الذي لطالما سخر منه في رواياته.. فأبطاله أشخاص ناضجون، لا يركض الرجال خلف النساء ولا العكس.. الأمر بالنسبة إليهم واضح للغاية: نعم أو لا.. وهذا ما يجعل من هذه المرأة فاكهة مشتهاة يحاول تسلق شجرة الجحيم ليقطفها.. امرأة لا تعرف كيف تقول نعم أو لا.. تحب التردد والاضطراب.. تعيش في الضباب.. كم يحب الضباب..

عثر عليها في سهرة راقصة من اللواتي يرتادهن ليزيد اقتناعا بوحدته وسط كومة من المعجبات والأصدقاء.. تركها تشعر طويلا بنظراته تخترقها وهي تراقص هذا أو ذاك، تتحدث بملل عن آخر صيحات الموضة مع إحدى المدعوات، تساير أخرى في حزنها على موت نجم سينمائي مشهور، تنصت باهتمام مزيف إلى موسيقي يروي لها عن لحظات التأله التي يعيشها أثناء عزفه على الساكسوفون... انتظر بصبر أن تهرب من الجموع الثرثارة وتبحث عن الصمت في شرفة مبللة بمطر آذار الدافئ.. لكنها لم تفعل.. كانت واثقة من أن هذا ما يريده فأرادت الاستمتاع بلعبة الانتظار..

تمر أمامه مرات وكرات دون أن تنظر إليه.. لم يستسلم ويقل لنفسه: "هذه امرأة كالأخريات، تحب الطيران من فوق وجعل الرجال يقفزون كالكلاب للنيل منها، مستمتعة بسماع نباحهم".. انسحب باهتمامه من القاعة وعاد إلى روايته التي تركها في البيت وتلك المرأة بداخلها تبحث عن طريقة ما لتتحدث إلى رجل أبكم قيل لها أنه يعرف أين دفن زوجها.. يفكر بالمعنى الذي قد يحمله

إصرارها على إيجاد قبره بما أن وفاته لم تحرك فيها شيئا.. ثم يتعب بسرعة من التفكير ويعود بذهنه إلى الحفلة فيجدها بين أحضان رجل أصلع يلتهمها بالقبلات ويهمس في أذنها كلمات تضحكها.. يتفرج على المشهد دون أن يتعب نفسه في التخمين اللامجدي.. يشعر بالنوم يزحف متثاقلا من قدميه فيقرر أن عليه العودة إلى بيته.. العودة من دونها؟ مستحيل..

ينتظر إلى أن تفلت من ذراعي الرجل البهلوان لكنها لا تفعل.. يلامس جبينه بحثا عن أشياء قد تشي بما يفكر به وتدفعها لفعل عكس ما يريده دائماً ثم يتخلى عن الفكرة ويغادر..

هناك أشياء لا يجب استفزازها وإلا فلن تحدث أبداً.. هذا ما فكر به قبل أن يغط في النوم..

والآن، تنظر إليه بحنان ساخر وتقول ما اعتادت على قوله دائماً عندما يطلبها أحدهم للزواج:

- متى ستقتنع أخيرا أيها الطفل الكبير أن ذاكرتي مثقلة بالخيبات ولا أريدك أن تصبح واحدة منها؟

يتذكر فجأة صوفيا.. بطلة إحدى رواياته التي ظلت ترفض الزواج من عشاقها إلى أن استسلمت أخيرا وهي في سن الخرف ولم يبق لها سوى بضعة خطوات لتنزلق في الهوة.. وعندما سألها زوجها الذي يعادلها سنا عن سر هذا الجنون، أجابته بلهجة مرتعشة ورائحة الغباء المؤلم تنطلق من فمها: "لا أريد أن أكون وحيدة عندما أموت"..

يبتسم لهذه الذكرى ثم ينظر إليها بشراسة لم يتعود إظهارها إلا

في لحظات معينة بين العاشرة ليلا والواحدة صباحا.. لا، لن يترك هذه المرأة تتابع لعبها مع الصغار ثم تنتهي على كرسي متحرك، جالسة بالقرب من زوجها أمام المدفئة في انتظار الموت.. لا يجوز أن يضَيِّعَ فرسا كهذه وهو الذي اعتقد دائماً أن كولومبيا أبيه امرأة مسحورة سجنها أحدهم في جسد الفرس لئلا تخرب العالم بجمالها البركاني.. هاهو يجد روح كولومبيا في هذه المرأة.. لن يتركها تركض خلف سرابها في غابة الكون لتنتهي بين أحضان العدم الذي سيسحقها دون شك..

- الأمر واضح بالنسبة لي: نتزوج أو أقتلك.. وأرجو أن ذكاءك سيقنعك أنني جاد في ما أقول..

تنظر إليه مندهشة فتكتشف في براكين عينيه أنه لا يسخر.. ولكنه يهددها.. لطالما استمتعت بالعصيان عندما يحلق شبح العقاب المحتمل من فوق.. لطالما تركت عشاقا خلف غبارها فقط لأنهم هددوا بالانتحار إن هي هجرتهم، ولم يفعلوا..

لكن هذا الرجل شيء آخر.. أن يصل إلى نقطة ما من جنونه تسمح له بالقتل فهذا يعني أنه مثلها.. وأن حياة ستجمعهما لن تكون كالأخريات.. وربما سوف تنقذها من المصير الغبي الذي يخبئه الضباب..

تتساءل بدهشة كيف انتابتها حمى مفاجئة جعلتها تبحث عن رقم هاتفه بعد تلك السهرة الصامتة، ثم تطلب منه موعدا، ثم تزوره في بيته، ثم تتحدث معه عن أشياء غريبة، ثم تنصت معه لموسيقى شوبان التي يعشقها، ثم يجن الليل فتشعر بالتعب وتنام

على الأريكة، ثم يحملها إلى السرير فتستيقظ، يغمرها بالأغطية الدافئة، يقبلها طويلا، ثم... يتمنى لها ليلة سعيدة وينسحب إلى المكتبة...

تنظر إليه من جديد.. لماذا يريد الزواج منها؟ أ لكي يجرب معها لذة الحياة العادية؟ أم أنه يحبها حقا؟ تريد أن تفهم الآن، الآن بالتحديد ما هو الحب.. توشك على سؤاله لكنها تتراجع مشفقة على نفسها من سماع محاضرة مطولة حول النظرات وقدرتها على إيقاظ جني ما في داخلنا، ثم يتحول الجني إلى طفل صغير يريد أن يستحوذ على دمية غريبة لم ير مثلها من قبل، ثم يتعلم الطفل كيف يتعلق بدميته الجديدة، فيرمي بباقي الدمى ويحتفظ بها وحدها.. وشيئا فشيئا، يكتشف أن الدمية تسكنها روح غريبة فيحاورها في عتمة الليل.. تحكي له عن قصصها كشهرزاد..ثم تعده، عندما يصيح الديك، بحكاية أخرى في الليلة التالية.. ولا تفنى الحكايا.. فيكتشف الطفل فجأة أنه لن يستطيع العيش من دونها..

* * *

(3)

استقر رأيهما على إقامة حفل الزواج في مزرعة أبيه، وسط البرية.. علقت ضاحكة:

- ذلك سوف ينسيني ولو لأيام قليلة أنني ارتكبت جريمة لا تغتفر في حق الفرس التي تسكنني..

لم يتوقف والده عن الشرب طوال الحفلة، لم يصدق أن ابنه قرر أخيرا الانزواء بين أحضان امرأة غير مهددة بالنسيان.. كان يعرف أن هذا الزواج لن ينتهي بالانفصال وأن هذه المرأة التي تشبه كولومبيا في لحظات الجموح المفاجئة، لن تكون كالأخريات وسوف تنجح في إنقاذه من شياطين الوحدة والصمت لتفتح أمامه أبواب جحيم جديد، سيمتعه ويسعده حتما..

يشعر هو الآخر أن والده سعيد به.. والده ليس الرجل الذي يبحث عن أحفاد يشعرونه بجدوى وجوده.. لكنه عاش بما يكفي ليعرف أن الزواج من امرأة نحبها هو الطريق الأوحد لنيل السلام ومغادرة الأنفاق المظلمة التي لا تودي إلى شيء..

يبتسم وهو ينظر إليها.. تبالغ في الشرب دون أن تنتبه لذلك، تراها تريد أن تثمل كي تنسى هذه"الفاجعة"؟ أم أنها سعيدة؟ هل تقدر على أن تكون سعيدة حقا؟ وهو، هل يستطيع ذلك؟ هل سيكتشفان يوما معنى ما لكلمة السعادة؟

تتضاعف دهشتها عندما ترى نفسها في موضع كهذا.. عروس جديدة، تسطع كشمس وسط البرية وزوجها بجانبها يبدو هو الآخر مذهولا من كل ما يحدث، غير مصدق أنه فعل هذا.. لا يرى من المستقبل إلا الضباب ولكنه يشعر بلذة غامضة.. وينظر إليها فيجد في وجهها كل شياطين السعادة المعذبة التي سيعيشها برفقتها..

- يبدو أن انتقالك إلى المدينة وابتعادك عن صدق البرية ونقاءها قد أدخلا إلى رأسك بعض الأفكار البهلوانية كالزواج مثلا..

يهمس له أخوه إدوارد متجاهلا الجمال الغريب والمرعب

الذي يتدفق من وجه العروس وجسدها.. إلى أين سيقود هذا الزواج يا ترى؟ رواية جديدة؟ نظرية أخرى حول الجنس اللطيف وقدرته السحرية على تحطيم القناعات القديمة واختراع جحيم جديد يصطلي فيه الفكر للوصول إلى حقيقة كبرى؟

أما هو فبابتسامة عريضة يرد عليه دون أن يزيح عينيه عنها:

- امرأة كهذه تستحق أن أصير بهلوانا على المسرح الكبير يا عزيزي.. قل لي، ألا تفكر الآن رغما عنك بذوق شفتيها ونكهة صدرها وهو يلهث فوق صدرك، وتتمتم لنفسك بخجل وحقد: "آه لو لم تكن زوجة أخي"؟

يضحك إدوارد محاولا إخفاء دهشته أمام تكهنات أخيه.. ينتقل بعينيه إلى السماء، وأسراب الخطاف تهاجر إلى مكان ما.. (الطبيعة والكتب والمشروب والنساء العابرات.. هذا هو عالمي.. أما المرأة التي تحاول بجمالها المتوحش أن تخترق جدران الوحدة لتثبت لنفسها جدوى وجودها على هذه الأرض فأتركها لأخي ولرجال مثله، يبحثون في كل شيء عن هدف مفقود...)

- ما أروع حكمة ديدرو..أتدري ما الذي قاله ديدرو عن زوجتك؟
- صديقك القديم الذي يتعفن تحت التراب الآن؟ هل كان هو من حرضك على جنس النساء؟
- "فيلسوف كبير يدعي أن الروح تتركز في أسفل النخاع الشوكي.. أما أنا، إن منحت روحا للنساء، فأعرف بالضبط أين سأضعها.."

يضحك متابعا النظر إليها وهي تتحدث ضاحكة مع والده..

إدوارد رجل ميت لأنه يصدق كل ما يقوله الأموات.. حتما، روح النساء لن تكون في أسفل النخاع الشوكي.. (روحهن يا صديقي تتحرك كالزئبق من مكان لآخر.. حينا، تكون في الموضع الذي ذكره ديدرو وحينا آخر في قبة السماء أو في فوهة بركان مجهول.. قد يكون هذا ما يدفعني للزواج، وما يجعلك تنفر منه كمن يهرب من الطاعون.. أنا، أريد البحث عن هذه الخلية الضائعة، وأنت ترفض فشلك المحتمل فتهرب، تهرب يا صديقي، تهرب...)

ولم يهرب ليلتها.. رآها وهي تتخلص من الياسمين المعقود حول خصلات شعرها وتحاول انتزاع الوردة الضخمة المحيطة بعنقها وسط رباط حريري أبيض..

تعبر جسدها رعشة لذيذة عندما تشعر بيده تخلصها شيئا فشيئا من تنكر حفل الزفاف.. تشهق بصمت حين تجد نفسها في زيها الجديد: جسد حر، لا عقد يقيده ولا أسمال تسيطر على حركاته.. وهناك، على حوافه المشرفة على الهاوية، حمامة سمراء تسير ببطء مستفز وتترك في كل مكان تغادره خلية كهرباء راقصة..

تلتفت حولها وتتذكر منظر كولومبيا وهي تركض بجنون مع الأحصنة الأخرى بينما يحتفلون جميعهم بالمناسبة السعيدة.. تركض هي الأخرى، تصير فرسا بيضاء.. تلتفت الفرس إلى الوراء فترى جناحين عظيمين يولدان من كتفيها.. فتطير.. تطير بحثا عن الريح وعن الخلية المفقودة...

* * *

(4)

- أخبريني بأول جملة تخطر على بالك الآن، في هذه اللحظة بالذات..

تسكنها روح كاتبة؛ يعرف ذلك.. ويريد أن يوقظ شيطان الإبداع بأي ثمن.. يريد أن يخرج للعالم امرأة خارقة، متخفية خلف سحابات دخان الحشيش وكثافة الغيوم الهاربة.. يعرف أنها خائفة من كل شيء ولكنها، كما قال فيرون، شُجاعة لأن خوفها لا يظهر.. يريد أن ينبش التراب ويجد كل كنوزها..

- لا أريد.. دعني أنام..

خائفة هي لكنه مصر على اقتحام كل أراضيها، ولو عنوة..

- أخبريني بأول جملة تخطر على بالك ثم نامي.. أرجوك.

رفضت وظلت ترفض.. ربما لأنها كاذبة محترفة وحتى لو لم ترد ذلك، فلن تكون جملتها نابعة من هوة اللاوعي كما يرجو.. اقترحت عليه كي ترضيه أن ينتظر حتى تأتي مروى بالمؤونة فيتسع لها قول الأشياء دون مواربة.. وسوف يحصل على كومة من الجمل الصادقة التي تقفز من جحيم الـ"هو".. لكنه يزجرها بخيبة:

- حمقاء.. أريد أن تكون العبارة ثمرة لتزاوج الوعي باللاوعي.. هل تفهمين؟ الكاتب ليس بحاجة ليشفط رأسه بواسطة هذه القاذورات حتى يخرج أناه الآخر إلى الورق.. لابد أن يكون داخل العالم وخارجه.. داخل ذاته وخارجها.. في كل مكان وفي

لامكان.. أتفهمين؟

- ومن قال لك أنني كاتبة؟

يزحف بفكره خارج الغرفة.. يبحث عن طريقة أخرى لإيقاظ المبدعة بداخلها.. لكنه يتعب بسرعة.. يكتشف فجأة أن النمرة لن يروضها أحد.. وأن جنية الليل ليست سوى طيف عابر يمتلكه للحظات ثم تعود النمرة لتسيطر على كل شيء.. ليست امرأة صعبة بل مستحيلة..

أما كاميليا التي فاجأها زوجها تمارس الحب مع كلبهم الضخم، في روايته الأخيرة، فقد قررت أن تسافر إلى الهند حيث قيل لها أن مجموعة من الرهبان يبحثون في نهر الغانج عن دموع مريم العذراء التي انسابت على وجنتيها وهي تراقب الجنود يسمرون ابنها الوحيد على صليب خشبي..

ينسحب بفكره كليا من الغرفة ويعود إلى جو الرواية فقضية كاميليا تهمه لدرجة مخيفة.. تمارس الحب مع الكلب كي تجد لذة أخرى ثم تذهب إلى الهند للبحث عن دموع العذراء.. هل هناك حقا خيط يصل بين الأمرين في رأسه ويتعمد إخفاءه من سطح الرواية؟ ولكنه كان دائماً كاتبا ديمقراطيا.. كل شخصياته منفصلة عنه.. تتصرف في أعماله بحرية وتقود حياتها كما يحلو لها دون أن يلعب هو أي دور سوى وصف ما تفعله وطلائه بما يلزم من الكلمات المعبرة.. ولكن، ماذا لو كان هذا أيضاً مجرد وهم؟ ماذا لو كانت شخصياته كلها ساكنة فيه وأنها، رغم ما يبدو عليها من تناقضات، ليست سوى وجوه متعددة لأناه؟ ليس سوى

حكواتي سخيف يحرك خيوط الغراغوس وهو يروي قصصه التافهة؟ وكثيرا ما يشعره ذلك بالنعاس فيبدأ بالخلط ونسج أحداث لا منطق يحكمها ولا حبكة تصل بعضها ببعض.. وهذا بالضبط ما يحدث له مع كاميليا.. وهذا ما حدث له مع كل شخصياته التي قالت زوجته أنها شياطين تخرب ما يبقيه الحشيش من عقل.. لكنها تدرك مثله أن كل ذلك لعبة لامجدية للإذهال، للَّعِب على طريقة كافكا.. الشيء الوحيد الذي قد يواسيه في بركة الأكاذيب هذه هو أنه لا ينشر ما يكتب، إذن فهدفه من لعبة الأصداء والطلاسم ليس إبهار القارئ وجعله يطرح على نفسه ملايين الأسئلة...

يبتسم بحزن وهو يسمع صوتا آتيا من كهف ما في داخله: "وما أدراك أنك لا تكتب كي تنشر؟ ألا تفكر من حين لآخر بالنجاح الذي قد تلاقيه أعمالك إن أنت نشرتها؟ ألا تتمنى في سرك أن يقوم أحدهم بنشرها بعد موتك فتنال الشهرة التي عرف بها بيسوا: "شهرة ما بعد الموت".. أي الخلود؟؟"..

ينظر إلى وجه زوجته كما ليبحث فيه عن شعاع حقيقة.. لكنه يتذكر كاميليا من جديد.. فينهض ملسوعا من فراشه.. يسارع إلى جهاز الكمبيوتر.. يبحث عن ملف الرواية ثم، ودون إلقاء نظرة أخيرة قد ترجعه عن قراره، يضغط على خانة المسح.. ويعود إلى السرير وقد شعر براحة غريبة يتخللها ألم لذيذ..

حياته مجرد عبارات متعبة تركض خلف نقطة النهاية لترتاح.. ربما تزوجها كي يجد نَصُّه منفذا جديدا للتنفس، لكن الكتاب

ينزلق بسرعة نحو الهاوية.. والكلمات التي بقيت جميلة لأنها لم تُقَل، سوف تهرم حتما لأنه سيقولها يوما ما.. ونبع الماء الذي يظهر له خلف الأفق الملتهب لن يكون سوى سراب جديد.. والأكاذيب التي ينسجها حوله ليؤمن بضرورة البقاء سوف تتبخر دفعة واحدة عندما يقرر الكاتب الكبير المختبئ فوق السماوات أن ينهي حكايته لأنها صارت مملة..

ينظر حوله فيجد أن المرآة وحدها بقيت تلمع في الظلام.. كمصباح في زجاجة.. يرى وجهه كخطوط باهتة تآكلتها الرطوبة في لوحة رسام مات قبل أن ينهيها، أو ربما مات لأنه لم يستطع إنهائها.. تزدحم الخطوط في نقطة ما وتشكل كومة غبار بدون ملامح.. يحاول أن يتحكم برغبته لكنه يستسلم آخر الأمر ويقترب من وجهه المبعثر:

- هل ستكون النهاية مؤلمة؟
- البداية كانت مؤلمة أيضاً، فهل أحسستَ بذلك؟
- لا..
- إذن فلن تحس بألم النهاية..
- سأصدقك.. لأن لا خيار آخر لدي..

يتذكر ما قاله دو لا برويار: "هناك ثلاثة أحداث فقط تعبر حياة المرء: يولد، يعيش ثم يموت. لا يشعر بولادته، يتعذب حد الموت وينسى أن يعيش".. ثم يقرر فجأة أن دو لا برويار رجل خائب وأن الوجه المتعفن الذي خاطبه منذ قليل حلم رديء أتى ليخفف عنه ثقل الأرق والتفكير اللامجدي بالنهاية التي لا تأتي

أبداً حين نحتاج إليها..

لا بد أن يجد يوما ما فرسا سريعة يمتطيها لسباق أخير مع الزمن.. ربما، في نقطة بعيدة تلمع له من بعيد كنجمة قطبية، سوف يجد التفصيل الوحيد الذي يستحق العناء: الموت أم البقاء لأجل المجهول.. كل ما يحتاج إليه هو حسم هذه القضية.. فهو ليس واثقا بعد أن المجهول موجود حقا.. أن يتأكد أخيرا من وجوده سوف يعني ضرورة البقاء رغم الجميع، ورغم كل شيء..

في الرواية، تزدحم الوجوه التي اكتشف للتو أنها مجرد تجليات عابرة لذاته المختنقة.. تقول الأشياء التي يفكر بها هو، تعيش ما يمنحها إياه، تسافر إلى حيث يريد السفر، تحب كما تمنى أن يحب.. لكنها لن تجعله يكتشف أي شيء خارج عن معرفته.. لن تقوده إلا لحقائق يعرفها مسبقا حتى وإن لم يعرف أنه كان يعرفها.. رواياته دائرة مغلقة.. وكل باب يبدو له منفذا لعالم جديد ليس سوى نافذة تطل على الغرفة المجاورة.. البيت محصن جيدا.. لأنه لم يجد المفتاح.. لم يجد باب الخروج..

وهناك، في الخارج، يصطخب العالم الجديد.. يسمع أصداء تنضح حريةً.. وكل ما يريده الآن هو فك رموز اللغة التي تصرخ بها.. المتاهة تقود لمتاهة أخرى.. حين يفهم اللغة الغريبة، ربما سوف يجد في كلمات البعيد إشارة لمكان المفتاح، وحين يجد المفتاح ربما سيكون قويا بما يكفي للبحث عن باب الخروج.. وحين يجد الباب، حين يدخل المفتاح في الثقب.. هل سيكون سعيدا فعلا بذلك؟ هل سيستمر في المغامرة متجاهلا صوتا آخر

ينطلق من ركن ما في ذاته ويصرخ: "سوف تموت إن أنت خرجت من هذا البيت.. لا معنى لوجودك خارج دائرة أوهامك.. هواء الحرية سوف يخنقك.. ستخسر كل شيء.."؟

يبتسم بألم حين يكتشف فجأة أن لا شيء من هذا يمكن أن يحدث، أن بيته سيبقى مغلقا وأنه لن ينجح أبداً في فك رموز اللغة التي يسمع أصداء صراخها في الخارج، وأنه حتى إن نجح في ذلك، سوف لن يجد المفتاح وحتى إن وجده فسوف لن يجد باب الخروج أبداً..

يؤلمه ارتياحه لكل هذا.. يضع رأسه على صدرها الذي يتنفس بحركة موسيقية عذبة، يبتسم أخيرا وهو يتمتم: "صحيح أنه لا يشعر بولادته ويتعذب حد الموت وينسى أن يعيش، لكن صدر هذه المرأة يقنعه بسهولة في ساعات الليل المتأخرة أن كل هذا غير مهم، غير مهم على الإطلاق"...

* * *

(5)

الشارع عامر بالأنفاس الكريهة، الوجوه التي فقدت ملامحها والخطى المسرعة إلى شيء ما، لا أحد يعرفه ولا حتى يأمل ببلوغه.. ينظر كمن وصل للتو من كوكب آخر إلى كل التفاصيل التي تجعل من هذه اللوحة السوريالية حقيقة لا طعن فيها.. يحاول أن يضع خطا بين ما يراه ويستقر في ذهنه كمجرد وهم وبين ما لا يراه ويحدس أنه موجود حقا.. تتعبه محاولة التأله هذه

فيلتفت إليها، امرأة خارقة، قادرة دائماً على السير إلى جانبه والتحليق في آن خارج الكون.. يجد في ابتسامتها سببا كافيا للنسيان.. ماذا ينسى، والذاكرة ليست سوى متحف عامر بتفاصيل نُعِدُّها للنسيان؟ نتذكر لننسى ثم ننسى لنتذكر.. الآلة جيدة الصنع، لن تتعطل أبداً.. وحتى إن تعطلت، سيحدث ذلك في ساعات الليل الأخيرة حين يكون غارقاً في واحات زوجته أو نائما كأي طفل متعب ومفرغ الروح..

يعود إلى النظر إليها محاولا التخلص من رتابة أفكاره.. لكن وجهها يذكره بكل شيء، حتى بالأشياء التي لا يتذكرها، وتلك التي لم ينسها حتى يتذكرها من جديد.. وجهها وقدرته على إشاعة الخراب.. وهذا الملاك الصغير، الخجول الذي ينام تحت عينيها.. كل ما فيها يثير الألم ويوقظ الجني الذي يريد أن يصل..

- برأيك، إن سقطت الآن على الرصيف، دون أن أكون قد تعثرت بشيء.. هل سيكون ذلك بسبب نظراتكَ المحرقة التي تلفح وجهي؟

يرتجف تحت وقع سؤالها كما الإله الذي اكتشف فجأة أنه لم يعد إلها حين جاء إليه أحدهم وسأله: "من أين أتيت؟".. فعجز عن الجواب..

يستمران في السير وكأن وجهتهما تطارد الريح وترفض أن تستقر في مكان واحد.. تتمدد الطريق المؤدية إلى مطعم "الشموع الثلاث" وتفقد حركات العقارب مرونتها.. ينتابه حدس غريب بأن الآلة معطلة الآن وبإمكانه الوصول.. لكنه فجأة يكتشف أنه عاجز

عن التفكير، وعن الحركة.. يعرف أنها معطلة وأنها فرصته الوحيدة للوصول، يعرف ذلك جيدا لكن بينما يستمر إدراكه في العمل كالماضي، أو ربما أكثر، تتعطل إرادته فجأة... ويدرك أخيرا أنه لا يريد الوصول...

- رجل وسيم يتأبط ذراع امرأة مرعبة كهذه.. العالم مليء بهذا النوع من الجرائم لكننا لا ننتبه إليها ولا نحاربها كما نحارب جرائم القتل.. لماذا؟ ألا تعتقد أن وجود رجل بهذا الجمال مع امرأة بهذا القبح أبشع من كل جرائم القتل التي يعاقَب مرتكبوها كل يوم؟

يرتجف من جديد.. يود أن يسألها بدوره: "لماذا عندما ندرك جيدا أن الآلة قد تعطلت، نعجز عن استثمار ذلك لصالحنا؟ لماذا ندعي العجز ولا نعترف ببساطة أننا غير راغبين في ذلك؟.." لكنه لا يفعل.. ينتابه شعور لامنطقي بأنها سوف تجيبه وتقنعه.. وهو لا يريد أن يسمع الجواب.. لا يريد أن يختنق.. لا يريد أن يموت...

- هاقد وصلنا أخيرا.. ظننت في لحظة أننا لن نصل أبداً..

وصلا إلى المطعم.. لم يكن شيء مميز ينتظرهما هناك؛ فقط دعوة غداء فاخرة برفقة بعض الأصدقاء الذين أصروا على رؤية المرأة التي تزوجها رجل ظل يبدو لهم الوحيد الذي لن يقع في هذا الفخ.. كان يدري أنها سوف تسحرهم جميعا، ليس بجمالها فقط بل بحضورها النفاذ كعطر الياسمين البري وصمتها الذي تتجلى عبره آلاف القصائد.. كان يعرف أنه يلبي هذه الدعوة

ليشغل فكره عن هواجسه المعتادة، وربما لكي يستعرض أمام أصدقاءه نمرة نجح في القبض عليها دون الحاجة إلى طلقة رصاص واحدة.. ويتساءل لأول مرة منذ زواجهما: "كيف ولماذا قبلت به؟"..

- ملاك.. زوجتك ملاك يا صديقي..

تضحك كما لنكتة ثقيلة..

- نعم.. ملاك.. أظن أنني سأوافقك الرأي.. إنها ملاك..

ثم ينفجران ضاحكين دون أن يفهم أحدٌ شيئا.. ربما كان هذا ما دفعها للقبول به.. هذا التواصل السري الذي يظل يربطهما حتى وسط جماهير من الأصدقاء وأصوات حادة تملأ الفضاء بثرثرات معتادة وضحكات ترن دون اقتناع لتكسر الصمت الكوني المخيف.. لغة وحدهما يتقنانها.. ربما أدركت ذلك منذ البداية.. قالت أن الحب غير مهم بل إنه صار أغنية صدئة يحاولون إحياءها بتوزيعات جديدة.. أدركت أن هذا الرجل سباح ماهر وسوف ينجح في الغوص إلى نقطة بعيدة من أعماقها وربما سوف يساعدها على اكتشاف كنوز خفية لم تستطع إيجادها حين كانت وحيدة..

- الإبداع علاقة آنية مع الأشياء يا صديقي.. حتى وإن دامت سنوات، نحن متأكدون أنه يوما ما سوف ينكسر شيء ما فيها وحينها، لا بد أن نكون أقوياء بما يكفي لنعترف بذلك ونجمع حوائجنا ونرحل.. ولكن، للأسف، معظم مبدعي هذا العصر لم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة النورانية من الحب المجرد.. ولذلك

تجد أن كل الكتاب يصيرون رديئين بعد بضعة منتجات جيدة.. لأنهم يرفضون الاعتراف، يرفضون إيقاف العلاقة عندما تصبح مجرد ذكرى هشة لشيء عظيم..

يسحرها نسيم عذب آت من حديقة المطعم، فتنسحب بفكرها من الجو الحقير الذي تحاول محاضرات صديقهم الشاعر عبثا تضخيمه.. تسافر إلى حدائق غرناطة في إسبانيا حيث عاشت مع غجري إشبيلي حكاية لن تتهور أبداً بوصفها بالتافهة.. ولكن، قبل أن تبدأ بإعادة تأثيث الذاكرة والعودة إلى ذراعي الإسباني، أيقظها زوجها بقبلة دافئة.. لم تنزعج، تمتمت فقط للريح ما قاله ميشو: "تتدحرجين أيتها الحياة، تتدحرجين.. وأنا لا أتبعك.. لم أتبعك يوما"..

* * *

(6)

في تركيا، كل شيء يصبح ذا نكهة مختلفة.. وفي جامع السليمانية تبدو الحضارة كقصيدة شعر نظمها مجهول وعلقها بين السحب ثم اختفى.. لم يخطئ من قال أن إسطمبول سيدة العالم.. أين يمكننا أن نجد هذه الفسيفساء الرائعة التي تحتوي التاريخ وتغسله في مياه البوسفور لتتحول شلالات الدم التي ساحت من أيادي السلاطين إلى مياه عذبة تلمع تحت شمس شباط الدافئة..

هاهو يحكي لها قصة سليمان القانوني مع روكسلان.. تنتابه

رغبة في العودة إلى سنوات المجد، حين كانت أوروبا كلها قابعة تحت أقدام الأتراك، حين كانت البواخر الأمريكية تدفع ضريبة عبورها في المتوسط.. يود لو تتحول زوجته إلى تمثال إلهي الجمال في حديقة "توبكابي" أو إلى رسم قديم في قبة "آيا صوفيا" أو قطرة من مياه البوسفور..

تركيا.. الأرض الوحيدة التي يؤمن بأن جنيا ينام تحتها وسوف يخرج يوما إلى هذا العالم، ينفخ عليه أنفاسه الحارة فتحترق الأشياء الزائفة ولا يبقى سوى الجمال والسلام.. يتساءل فجأة إن كان سيحترق هو الآخر بهذه النار التطهيرية.. وزوجته، هل تنتمي إلى الأشياء التي ستتبخر حين يستيقظ الجني؟

تموت روكسلان قبل أن ترى ابنها "سليم الأول" يمتطي عرش أبيه، تموت مخلفة ذكرى جبروتها وبطشها بكل من يحاول اعتراض جموحها.. امرأة قوية تستعين بالدموع وآهات الليل الخافتة لتفرض سيطرتها.. استراتيجية النساء.. ولكن زوجته لا تشبهها في شيء سوى ربما في الشعلة التي تضطرم في العينين وهذا الولع الجارف بالانتصار.. نشوة القوة والسيطرة على رجل عظيم كسليمان القانوني..

- لطالما حلمت بكتابة شيء عن تركيا لكن اللغة تخونني دائماً.. أظن أني سأظل عاجزا عن فعل ذلك.. ربما لأن هناك أسرارا لن أكتشفها أبداً.. أرض خارقة لولا الأبله أتاتورك..

- أصمت.. لولاه لما أتيح لي تقبيلك هنا بالذات، في ساحة المسجد.. لولا اللائكية لغرق الجميع في ظلمات التزمت

والجهل المطلق الذي تُخَصُّ به النساء عادة..

ينظر إليها مبتسما.. نادرا ما تتحدث بجدية ووضوح، والغريب في الأمر أنها تصير أكثر إدهاشا عندما تفعل ذلك.. لم يعرف حتى الآن أي العناصر تطغى على تركيبتها.. وربما يعتقد في قرارة نفسه أنها الوحيدة التي تملك هذا التوازن الخارق بين النار، الماء، الهواء والتراب.. امرأة متوازنة ولكنها تريد لأحد العناصر أن يطغى على البقية ويقودها إلى غيمتها الضائعة.. تستطيع الكتابة عن كل هذا لكنها تصر على الإيمان بأنها ليست كاتبة.. ويفكر برعب أية خسارة كان سيتجشمها الأدب إن امتنع ميشو مثلا عن الكتابة فقط لأنه مقتنع بأنه ليس كاتبا.. انطباعات واهمة عن أنفسنا تقودنا إلى خسائر فادحة لا ندركها إلا بعد أن يفوت أوان كل شيء، حتى الندم..

ينسى كل هذا وهو يشعر بمسامه تتنفس مرحبة بالثلج الذي يغمر المشهد ببياض ساحق.. يسمع صوتا ينطلق من حبة ثلج ضائعة: "استرح من جهادك المتعب هذا وكن واثقا بأن الأشياء تسير وستستمر في السير بك أو من دونك.." يبتسم رغم الألم الهادئ الذي شعر به وهو يسمع هذه الكلمات.. (نعم، لولا هذا المنطق الذي يحكم الكون لَصِرتُ إلها..)

- تركيا امرأة يا حبيبتي، قبب المساجد نهودها، وأشعة الشمس خصلات شعرها الذهبي، وضفتي البوسفور عيناها ومياهه دموعها، والجسور سيقانها والسلاطين الذين مروا على العرش عشاقها والتاريخ ذاكرتها.. حاولي أن تجمعي كل هذا

وستحصلين على فسيفساء رائعة، إلهية في انسجامها والحب الذي تتبادله الألوان والأصداء فيها.. امرأة خارقة..

- تشابيه رديئة للغاية أنصحك ألا تستعملها أبداً في رواياتك..

لا يهمه أن يكون كاتبا بارعا عندما يصف تركيا.. كل ما يريده هو وصفها بصدق، ببساطة تقربه من كنهها الحقيقي، من روحها المتخفية خلف الضباب وطبقات الثلج والأزقة الخالية في مثل هذا الوقت.. له كل المدن ليستعرض مهاراته الأدبية.. باريس حيث ترسم الأضواء وجها جديدا للمطر.. لندن حيث يحلو الحب مع أولى تنهدات الصباح.. بيروت حيث تتعرى جنية الثلج وتستحم في بحيرات الجبل الأبيض.. دمشق حيث يستعيد العالم كل يوم شبابه ونزواته.... لطالما ألهمته هذه المدن ليلعب بالكلمات ويشعر بمتعة طفل ينزع رأس دمية ويضعه على عنق دمية أخرى، ويكرر نفس الشيء مع باقي الدمى إلى أن يضجر ويرمي بها كلها...

ينسى كل شيء ويترك رئتيه نهبا لهواء شباط البارد.. ينظر إليها فيجدها غارقة هي الأخرى في ما يشبه الغيبوبة الصوفية التي وحدهم الدراويش يعرفونها وهم يدورون حول الفراغ.. الدراويش وعشاق هذه المدينة..

* * *

(7)

حين يكون في طريقه إلى البيت، يشعر أن الطريق تتعمد إطالة نفسها حتى تفَوِّتَ عليه فرصة رؤية زوجته في مشهد مميز.. لطالما كان واثقا من أنها تفعل أشياء غريبة في غيابه.. ليس الحشيش أو الشرب حتى الثمالة أو التحدث إلى المرآة.. بل طقوس أخرى تخفيها عنه كما كان المسلمون يتسترون على ممارساتهم الدينية في مكة قبل الفتح.. ينتابه رعب وقرف وإعجاب دفعة واحدة وهو يتذكر بطلة إحدى رواياته، تلك المرأة التي تتحين مغادرة زوجها لتمارس الحب مع طفلها ذي الثلاثة أعوام وعندما تضجر من ذلك، تأتي بِهِرَّة من الشارع، تشويها على الفرن ثم تلتهمها بشهية...

(يا إلهي، هل يمكن أن تفعل أشياء كهذه في غيابي؟ ولكن، لماذا اخترت أنا في روايتي أن تفعل البطلة هذه الأشياء وكنت فخورا بها، أفهمها كما يفهم الأب ابنته الشاذة؟ ولماذا الآن أرفض تصديق فكرة أن زوجتي تقوم بذلك؟ أي كاتب أنا؟ أُحِلُّ كل شيء لشخصياتي فقط لأنها غير موجودة وتنتابني رغبة في التقيؤ إن علمت أن زوجتي تفعل أشياء كهذه.. ولكن شخصياتي لها أسبابها... نعم، وزوجتي أيضاً سيكون لها أسبابها.. أما أنا فلا سبب يبرر هذا التناقض المخزي الذي يسكنني سوى أنني... كاتب.)

يحاول أن يخلص فكره من المتاهة.. يعود إلى روايته

الأخيرة، يحاول أن يفهم كيف سوف تخرج إيزابيل من سجن عسكري زُجَّت فيه لأنها حاولت قتل رئيس الوزراء فقط لتثبت لعشيقها أنها ليست جبانة.. يضجر بسرعة من تفاهة إيزابيل وأفكارها الجنونية.. يزيد من سرعة السيارة أملا بالوصول إلى البيت قبل الموعد..

زوجته نائمة على الأرض وبجانبها زجاجة ويسكي نصف فارغة ومنفضة السجائر.. يتنفس بارتياح ويذهب إلى المطبخ بحثا عن قارورة ماء بارد.. يعود إليها وقبل أن يصب الماء على جسدها، تفاجئه نوبة حنان فيضع القارورة جانبا ويربت على شعرها كأنما يشكرها على ما لم تفعله.. لا تستيقظ.. يفكر في لحظة أنها ميتة..

(نعم.. ماذا لو ماتت؟ المشروب والغيوم الهاربة والحشيش والسجائر دون حساب.. كل هذا لا يرحم.. حتى جسدها الفرعوني وقوته في تحمل جنونها لن يستمر في المقاومة طويلا.. حتى شراسة تعلقها بالحياة ونبذها لها في آن لن يقصيانها من غضب الطبيعة.. حتى هاتين العينين اللتين يرفض الجميع (حتى الله) تَقَبُّلَ أنهما سيصيران مسكنا للدود يوما ما ستتعبان من سُحُب الدخان وسراب البعيد وسوف تنطفئان حتما... نعم، ماذا لو ماتت؟)

يصعقه هذا الاحتمال.. لم يفكر يوما في إمكانية حدوث ذلك.. زوجته هي الموت فكيف تموت؟ زوجته تعيش على إيقاعات الكون كلها، تتنفس كل أنواع الهواء، حتى السامَّة منها،

تنظر إلى السماء بثقة ودون خوف حتى وهي تطلق شرارات غضبها على الأرض، تتحدث عن النجوم وكأنها عاشت بينها في زمن فات، تسير في الشارع فتبدو قطعة منه وتركض في البرية فتصير نقطة غبار محلقة.. هي جنية الليل حين يعلو صراخ الشهوات ويتضاعف الظمأ الغامض للخلود المؤقت.. هي الكاتبة التي ترفض أن تصدق ذلك فقط كي لا تشغل فكرها بما لا طاقة له على حمله.. هي كولومبيا في ماضيها الحاشد بالفرسان والجياد والآفاق الملتهبة البعيدة.. هي المرآة التي تعكس كل ما يطفو على سطح هذا العالم من قذارات وكل ما يختبئ في جوفه من كنوز.. زوجته ليست امرأة بل فسيفساء من النساء اللواتي لم يحن أوان ظهورهن بعد.. ولكن، ماذا لو ماتت؟

تتسارع أنفاسه رغما عنه.. يأخذ قارورة الماء بحركة هستيرية ويصب محتواها كاملا على وجهها وجسدها.. تنتفض كورقة خريف أخيرة في شجرة عارية.. تصرخ كعادتها عندما يوقظها عنوة ثم تتناول زجاجة الويسكي وتبادله التحية بصب محتواها كاملا على رأسه...

- ألن تكف عن إزعاجي أبداً؟

لا لم تمت.. كم هو غبي.. حنين دافق جرفه إليها فجأة.. ضمها إليه كمن خرج للتو من كابوس ووجد جسد زوجته إلى جانبه، مليئا بالحياة، مختنقا بالحياة.. يضمها إليه ويرقص على وقع نبضاتها السعيدة.. (نعم، سوف تموت يوما ما.. بالطبع.. لكن سيحصل ذلك عندما تقرر هي ذلك.. عندما تكتشف أن

الموت هو السبيل الوحيد لتحصل على غيمتها..)

- أتعرفين أنني أحبك لدرجة خطيرة يا عين الشيطان؟

- سأنشر هذا الخبر العاجل غدا صباحا في جريدة "التايمز".. كم الساعة؟

يلقي نظرة سريعة على ساعة يده ثم ينسى أمر الوقت وركضه السخيف نحو النهاية.. يحملها بين ذراعيه ويخرج بها إلى الحديقة..

- تعلمي أن تمارسي جنونك في الحديقة وليس بين جدران البيت.. هنا، لا خوف عليك من شيء.. كل الكائنات التي ترقص في عتمة الليل تساندك حتى وإن لم تقل لك ذلك.. أما البيت فهو عدو يحاول خداعك بصداقاته الكاذبة.. كل ما فيه يحاربك بصمت، يستفيد من اطمئنانك له كي يحطمك ببطء دون أن تشعري بشيء.. لا تثملي في البيت، لا تحششي رأسك في البيت، لا تطاردي الغيوم في البيت، لا تحاولي الانتحار في البيت... مفهوم؟

- يبدو أنني لست الوحيدة التي ثملت هذه الليلة.. ما بك؟ هل تشعر بآلام مخاض رواية جديدة؟ تتمرن علي أيها الوغد؟

* * *

(8)

- يا سيدي القاضي.. ثمانية أيام.. ثمانية أيام ولم نسمع أية ضجة في شقة جارنا بالطابق العلوي، ولا حتى بكاء طفل أو صوت ركض إخوته ولعبهم.. لا بد أنك سوف تجد في هذا سببا كافيا لمحاكمة هذا الجار الجائر...

ينظر القاضي إلى المتهم بغضب ويطلب منه تفسيرا لتصرفه الإجرامي.. يرتعد الرجل خوفا وبعد صمت طويل يجيب بخجل:

- يا سيدي القاضي، لقد توفيت والدتي في الريف وكان علي السفر لحضور المأتم واصطحاب كل عائلتي معي.. هذا كل شيء..

يتطاير الشرر من عيني القاضي وينطلق بخار الغضب من فمه وهو يصرخ بالمتهم:

- ماتت والدتك؟ وماذا بعد؟ ألم تفكر بحقوق الآخرين عليك؟ تسافر إلى الريف وتترك بيتك فارغا وتحرم جارك من ضجة أولادك وإزعاجهم؟ أقل ما كان يجب أن تفعله هو ترك ولد أو اثنين في البيت ثم الذهاب إلى جنازة أمك.. إنه إخلال غير مغتفر بقانون بلدنا..

وقبل أن يتيح للمتهم فرصة قول كلمة أخيرة، ينطق بحكمه في إيقاع سيمفوني فاخر:

- حكمت المحكمة على المتهم بالسجن المؤبد داخل قبو صامت لا تصله ضجة العالم ولا نور الشمس.. وأنت يا سيدتي، إن كنت متمسكة بحريتك، فحذار أن تتركي البيت بعد الآن فارغا

من ضجة الأطفال.. وأنتم أيها الشياطين الصغار، حذار أن يخفت صوتكم ولو للحظة طوال النهار والليل وإلا فسوف تلحقون بالبابا في قبوه المظلم، مفهوم؟؟ رفعت الجلسة.

يغادر الجمع قاعة المحكمة وكلهم راضون عن الحكم العادل الذي ناله الجار المجرم..

(يبدو هذا غاية في السخافة.. لكنها المرة الأولى التي أتحمس لرواية وأعمل عليها ليل نهار.. العالم مقلوبا.. حياة جديدة، مغامرة رائعة سوف نعيشها عندما تنقلب الأشياء إلى نقيضها وتختل كل القيم والمفاهيم.. وربما، بهذه الطريقة فقط، سوف تجد زوجتي غيمتها وأجد أنا المجهول الذي يستحق البقاء من أجله...)

الكاتب في داخله يقفز كطفل صغير عثر على دهليز مظلم داخل البيت يقود إلى مغارة لانهائية من الأنوار واللعب الغريبة.. تحاول زوجته الاحتفاء باكتشافاته المضحكة هذه لكنها هي الأخرى، مشغولة بمشاريعها الخاصة.. ومشروعها الحالي هو اختراع ذريعة للسفر...

يشعر بأن الكلمات تزدحم في ثغرها بحثا عن فرصة للخروج.. يستغل فرصة سعادته بعالمه الكتابي الجديد ويسألها بتحبب:

- هل تريدين شيئا يا ملهمتي الحبيبة؟

نعم، كانت هي من ألهمه فكرة العالم المقلوب في إحدى الليالي الحارة من شهر آب الخانق، عندما قالت له بعفويتها

المعتادة: "لقد تشاجرت مع زميل لي في العمل.. كان ذلك لسبب لا أفهمه.. تصور أنني لم أغفر له أنه كتب في تقريره الدوري أنه بفضل أفكاري النيرة، التي بدت لهم غريبة فيما مضى، نجحت الشركة في مضاعفة أرباحها ثلاثة مرات بالمقارنة مع حصيلة العام الماضي.. لا أدري كيف ولماذا التهمته بالشتائم.. وصفته بالغبي والمتزلف والكاذب والمنافق.... لماذا؟"

لم يجبها ليلتها.. انسحب بفكره كالعادة إلى ما خلف الشاشة وراح يفكر بما فعلته زوجته.. كان عليها أن تشكر زميلها لأنه أثنى عليها في تقريره فذلك سوف يطيل من صبر المدير على جنونها وإخلالها الدائم بقوانين الشركة.. لكنها تصرفت على العكس من ذلك تماما.. لم يرد أن يفهم لأي سبب فعلت ذلك.. كلمة "لماذا" غير مهمة في الأدب.. كل ما يهمه هو حياكة عالم بأكمله حول نقطة الضوء هذه: ردات الفعل الطبيعية، التصرفات الطبيعية، الكلمات الطبيعية... هي طبيعية فقط لأننا اعتدنا عليها... ولكن ماذا لو استيقظ الجميع ذات صباح دون ذاكرة، دون عادات، دون أدنى فكرة عن كيفية الحياة فوق سطح الأرض؟ سينقلب كل شيء، أليس كذلك؟ العالم مقلوبا... رائع... فكرة بسيطة سوف تلهمه عشرات الروايات..

- هل تريدين شيئا يا ملهمتي الحبيبة؟
- أريد أن أسافر...
- خير ما تفعلين.. أنا بحاجة للصمت حتى أتفرغ لكتابة أفكارك

الرائعة.. بعد إذنك طبعا.

تشعر بانزعاج غريب.. ولا تفهم لم هي منزعجة.. لماذا وقد كانت فكرة السفر أهم من أي شيء آخر خصوصا مع ظهور "ريتشارد" في حياتها كمارد خرج من مصباح سحري.. لقد سافر منذ أيام إلى لندن وينتظرها هناك.. والآن، هاهو زوجها يطلقها لرياح المغامرة دون أن يسألها حتى عن وجهتها...

تنزعج.. ربما من ارتياحه لذهابها.. لقدرته على التنفس في غيابها، على الحياة كأن شيئا لم يحدث، على الكتابة أيضاً.. لم تكن يوما عائقا بينه وبين حريته الإبداعية بل على العكس، كان دائماً بحاجة لوجودها إلى جانبه كي يكتب.. والآن، يريدها خارجا...

هناك شيء يدور في رأسها، يريد أن يتكون وينبض بالحياة، يريد أن يعلن عن رأيه؛ لكنها تجاهلته طويلا خوفا منه أو ربما إنكارا مسبقا لما قد يقوله لها.. أما الآن، فهي تراه بوضوح وتسمعه يصرخ تماما كامرأة المرآة: "أنت تحبينه وبحاجة إليه وغير قادرة على العيش من دونه"... كلمات بسيطة، بريئة، مجردة من كل الفلسفات والثورات الفاشلة ضد الحب... لكنها كلمات صادقة للغاية.. هي تحبه فعلا..

- تهاني الحارة سيدتي، صار لك لقب العاشقة.

ينظر إليها نصف ضاحك، نصف خائف.. لطالما توقع أن يقتحم حياتها رجل جديد سوف يقدر، عكس كل الذين عرفتهم قبل وبعد زواجها، على اقتحام أسرارها واختراع امرأة جديدة من

تركيبتها: "المرأة العاشقة".. لم يكن منزعجا لأنها منذ أن عرفها لم تنطق يوما بكلمة "أحبك".. لم يكن بحاجة لذلك بقدر حاجته لوجودها في حياته، في بيته، في ذاكرته، في تاريخه...

- ماذا قلتِ؟
- أنا أهنئ نفسي.. ألم تسمع؟
- سمعت...
- وما رأيك؟
- رأيي أنني مفرغ من طاقاتي وبحاجة إلى النوم..

وكالعادة، تقرأ في انكساره المفاجئ سوء تفاهم لم يزعجها؛ بل بالعكس.. آخر ما كانت تريده هو أن يتيقن من حبها له.. لم يحن أوان ذلك بعد.. لا، ليس بعد...

تنام هي الأخرى وهي تفكر بما قاله دوريفيلي: "عندما تريد اصطياد الآخرين، لا تعبر لهم عن مشاعرك نحوهم بل اكتفِ بجعلها موضع شك"...

* * *

(9)

- هل استمتعت بضباب لندن؟
- كثيرا.. لكني اشتقت لضبابك أنت..
- لا بد أنه كان رديئا للغاية..
- من؟
- الضباب.

ضحكته المضطربة تخونه لأول مرة.. وهاهي تخمن بالكاد ما

يفكر به.. لم تعد تستمتع بإخفاء أوراقها.. تعود بذاكرتها المتعبة إلى لندن فتقرر أن "ريتشارد" لم يكن رديئا مقارنةً بها.. كانت تستسلم كل ليلة وتقوم بالأشياء وفق استراتيجية قديمة تعبت من تكرار نفسها..

تكتشف فجأة أن وحده زوجها يستطيع استفزاز مواهبها ودفعها دون أي جهد للارتجال والإبداع.. جنية الليل تصير بين أحضانه كتلة مشتعلة خالدة.. تخترع كل ليلة طريقا جديدة للخلود.. تتجدد رائحة الحمم والسحب الحمراء، يتغير لون الشفاه المحمومة والأصابع الضمأى الباحثة عن بحيرة ماء الحياة، تنفلت شياطين الجحيم وتبتكر كل ليلة نكهة مختلفة للتفاحة المحرمة.. تصير الأشياء إلهية وهي بين ذراعيه...

يزداد اقتناعها المرعب بحبها اللامعقول لهذا الرجل... تخاف من البوح.. ولكنها سئمت من لعبة دوريفيلي... وهذه المرة، ليست امرأة المرآة من تخاطبها بل الأخرى، تلك التي تفهم جيدا ما تريده من الغيوم والحب والسفر..

- مم أنت خائفة؟

- أخاف من التعلق بشخص ما.. حصل ذلك مرة واحدة وكانت مع والدي.. اكتشفت ذات صباح أنني أحبه لدرجة الهوس.. ولن أستطيع أبداً العيش من دونه.. أحببته لأنه لم يزجرني يوما وهو يراني أدخن في سن مبكرة، لم يعترض على مجيء رفيقي الأول إلى البيت وإمضاءه الليلة في غرفتي، لم يمتعض مثل أمي عندما أخبرته برغبتي في مغادرة البيت والعيش مع أصدقائي في شقة

حقيرة، وكان سني آنذاك لا يتجاوز السابعة عشر.. اكتشفت أنني أحبه أكثر من أي شيء، وبعد ثلاثة أيام، اتصلوا بي من البيت لإخباري بموته... هل تفهمين لماذا أنا خائفة الآن؟

- لطالما وجدتُ الذرائع الكافية لأفهمك وأفهم جنونك الذي يأخذ منحى الحماقة أحيانا، وحتى عندما لم أكن أجدها، كنت أخترعها فقط لأساعدك وأقف إلى جانبك دائماً... لكن الآن، ليس بإمكاني سوى نعتك بالغبية.. أنت غبية حقا..
- لماذا؟؟

تصمت المرأة الأخرى.. تناديها من جديد لكنها تستمر في صمتها الكئيب.. ويخيل إليها أنها لن تحاورها بعد الآن.. لن تقول شيئا وسوف تتركها وغبائها إلى الأبد..

(نعم.. هي على حق.. أنا غبية.. وأعرف لماذا أنا غبية.. أعرف ذلك جيدا..)

تلتفت إلى زوجها، تقترب منه وتتمتم في أذنه بعد قبلة رطبة طبعتها على عنقه: "أحبك"...

* * *

(10)

القهوة مرة كالعادة، البخار المنتشر في أجواء الغرفة يجعل من الكون حكاية دخانية ولدت مع آخر نفس أطلقته سيجارة ليكَوِّنَ سحابة ضخمة أشبه ما تكون بعلامة استفهام كبيرة.. المدينة صامتة دائماً في الليالي الباردة.. تختبئ الأصوات والضحكات العابرة في البيوت والأسِرَّة.. والدفء الذي تفتقده الشوارع يجعل منها مكانا

رائعا للحلم..

هل سيخرج؟ وإلى أين؟ هند امرأة شرسة لا تحب أنصاف الحلول وتريده أن يرافقها إلى باريس.. البارات المختنقة من شكاوي السكارى ودموعهم المقهورة أصبحت تنفث رائحة الجيف والدم المتخثر في العروق.. حفلات أصدقاءه صارت موعدا للسخافة والحماقات المتعبة أكثر من أصحابها.. والتجول في ليل الشارع صار طقسا مبتذلا كغيره... ولماذا يخرج؟

البيت يتحول بفضل زوجته إلى قصر معلق بين السحب، تهدهده موسيقى شوبان وروائح الصمت التي تبقى ملتصقة بالجدران وبخار السجائر.. تعب من العالم المقلوب.. صار يتفادى ملفاته كمن يهرب من وعد قطعه لامرأة ثم اكتشف فجأة أنه لم يعد يحبها...

زوجته تسرقه من كل شيء.. عندما لا يلعبان معا على السرير، يستعيض عن ذلك بلذة تأملها أو سماع هذيانها وهي تطارد الغيوم.. لم يعد يذهب إلى العمل كما الماضي.. لم يعد يسافر وصار يجد دائماً طريقة لإرسال شريكه بدلا منه.. صار ملتصقا بالبيت كحبة غبار عالقة بين الأثاث.. ولم يعد هناك شيء يستحق العناء خارج هذا الفضاء المعطر برائحة الخلود..

في رواية العالم المقلوب، "ليليان" تقتحم مكتب محام معروف في المدينة لتطلب منه رفع دعوى طلاق على زوجها. وحين يسألها عن السبب، تجيبه كأغلبية النساء:

- زوجي يخونني..

- هل لديك أدلة؟

- نعم.. أظن أن طفلي ليس منه.

كل هذا لم يعد يهمه.. الكتابة تعبت منه هي الأخرى، يسمعها تصرخ من خلف الشاشة معلنة ضجرها من وهم نبوته غير المعلنة.. "لم أعد قادرة على احتمال حماقاتك.. كتبتَ عشرات الروايات والقصص القصيرة والنصوص المسرحية.. وكل هذا لماذا؟ لكي تبقى كلها مغلقة على أسرارها وجمالها بعد موتك.. لماذا تكتب إذن؟ لا تردد علي شعاراتك المضحكة.. كل كاتب هدفه واحد حتى وإن تعددت الأسماء: النشر.. هناك من ينشر كل رواية ينهيها ويستمتع بالشهرة والمجد.. وهناك من ينشر كل أعماله دفعة واحدة بعد سنوات من الصمت ليتلذذ بمجد أكثر صخبا.. وهناك من يوصي أقرباءه قبل موته بنشر أعماله عندما يموت... حتى بيسوا، ذاك الذي أقنعني ذات يوم أن وجودي له جدوى لا أحد يستطيع إنكارها، نشر بعض أعماله في حياته وترك الباقي لتتكفل المكتبة الوطنية في البرتغال بنشره.. هل تعتقد نفسك أعظم منه؟ تغلق على رواياتك بمفتاح سر اخترعَته لك هذه التكنولوجيا التافهة.. ووحدها زوجتك ووالدك وبعض الأصدقاء المقربين نالوا شرف قراءة أعمالك.. لكن لا أحد منهم سوف يقدر على فتح ملفاتك بعد موتك... لم كل هذا؟ لا جدوى من وجودي إن دُفِنَت كتاباتك معك.. لم أعد أحتمل سخافة فلسفتك.. دعني وشأني.."

هي على حق.. سئم هو الآخر من لعبة التخفي أمام الذات

وأطماعها العادية.. ما جدوى الكتابة إن ماتت معه ولم يبق منها سوى مشاهد عابرة في ذاكرة والده وزوجته والقليلين الذين ألقوا نظرة على كنوزها؟

هاهو يسَلِّم هواجسه وتعبه لسحب الدخان وحكمة الشتاء الذي وحده يفهم كل شيء لكنه صامت كالليل.. لن يفتح ملفاته ويطلب من زوجته نشرها بعد موته.. تلك سخافة أخرى سوف تقنعه أن كل ما فعله في الماضي هو محاولات فاشلة لرفع الكتابة إلى درجة أعلى من كونها مجرد وسيلة للوصول.. لن يكون رديئا إلى هذا الحد.. سوف يكف عن الكتابة ولتخلد بعدها أعماله في روح زوجته.. ذلك هو مجده الحقيقي..

يخرج إلى الحديقة وأسراب فراشات النور تحوم حول شعلة وهمية وتدعوه للانضمام إليها.. تلسعه نسمة شتاء باردة فيرتعد جسده لذة وألما.. يستلقي على العشب ويراقب الفراشات وهي تنير الظلام ببريق أبيض ينفض بعض الغبار الدافئ على وجهه..

لا، ليس الأرق ما يمنعه من النوم.. بل الرغبة المتجددة، كنار خالدة، في امتصاص كل ما يحدث في البيت والحديقة.. كل التفاصيل صارت تهمه حد الهوس.. لون الجدران، رائحة الياسمين والورود الأخرى المنتشرة في كل مكان، أصوات الليل عندما تمتزج بأنين شوبان ودقات الساعة الدهرية المعلقة على حائط الرواق، وقع خطاه على العشب الرطب وتنهدات الفراغ حين يسبح بجسده بين ثناياه كريشة طليقة، أصداء الحياة الليلية في البيوت المجاورة، ذوق الرذاذ الذي تجود به السماء في

ساعات الصفو والحنين، تراتيل البوم والغربان والصراصير وهي تعزف كأية فرقة موسيقية منسجمة، المجهول الذي يسمع صراخه من البعيد وهو يقول له: "أنا موجود.."

لا شيء يضاهي السحر المؤلم الذي تنفثه كل هذه التفاصيل في روحه.. وزوجته بجانبه لتنسج من كل هذا قصيدة أبدية تقود إلى جحيم الخلود..

* * *

(11)

تخلى عن كل شيء.. ومازالت رقعة الشطرنج تقاوم الغبار والسأم.. وتنتظره في كل مرة عند أبيه وكأنها مسكونة فعلا بروح الحرب والإصرار على المضي قدما نحو الخندق المبطن بالمتفجرات..

أحيانا ينتصر وغالبا ما يهزم.. فوالده يشبه التاريخ في ذاكرته المفعمة بالحروب وروائح الجثث المتناثرة على عتبة الفجر وأصوات المدافع وهي تنشد قصيدتها الخالدة.. ينظر إلى وجهه غير مصدق أنه يقترب من الثمانين.. لا شيء في عينيه المضطرمتين أبداً يبوح بسنه الحقيقي.. قد يكون جنيا يطارد الموت منذ دهور أو طفلا يفتح ذراعيه للحياة.. يستمر في السخرية من كل شيء والعبث بما يتوجب على البورجوازيين المسنين أمثاله إظهاره أمام العالم، وحتى أمام المرآة: رجل وقور صهرته الحكمة ولم يعد شيء قادرا على إضحاكه أو إدهاشه..

قابع قرب المدفئة يقرأ كتابا أو يداعب أحفاده بتعب وطمأنينة.. يمطر الآخرين بالنصائح والإرشادات ويرسم على ورقة هرمة ملامح وصيته وتفاصيل أخرى قد تكون مهمة بعد موته... والده يستمر في الضحك واللهو والشرب وإطلاق النكت البذيئة وكأنه نسي حقا منذ متى هو موجود في هذا العالم.. أم أن ذلك لا يهمه؟

- حاذر على ملكتك يا بني.. في الفترة الأخيرة، صرت تسلمها بغباء لأول مغتصب يحوم حول الأسوار..

الملكة قابعة في الركن، تدخن سيجارتها وتمتص أصابع الغياب في قهوتها المرة.. تتابع باهتمام معركة البيادق والفرسان.. وقد نسيت كليا أمر إدوارد والأنات الخافتة، التي لم تنجح الموسيقى في غمرها بالصمت، المنطلقة من غرفة نومه مع العروس..

هناك شيء يدور في فضاء الغرفة، يمر على وجوههم جميعا ويداعبها برفق قبل أن يخرج من النافذة ويختفي في البرية.. ماذا كان؟

هناك الخريف وأغانيه المتدفقة حنينا التي تنشر شذاها بين مسامات الروح وحواس الجسد في مثل هذا الوقت، عندما تتساقط الأوراق سعيدة باستسلامها للريح ويدق الرذاذ الحالم على أبواب الجنون والمتعة ليستثير الخلايا ورغبتها في الدفء والسفر..

وهناك الليل وأصواته الخافتة التي تكشف عن سر ما، مازالت آذان الجميع عاجزة عن التقاط ذبذباته.. أما الخشب الذي يحترق

بهدوء في المدفئة فيبدو سعيدا هو الآخر بجمال منظره وهو يذوي في رحم النار.. كل شيء ينصاع لمنطق الجمال وصدق البرية وطيبة الإله...

- متى سأنجح أخيرا في فهم سر تعلقكما بهذه اللعبة؟
- عندما تلعبين يوما مع أبي..

يضحك تولستوي.. ويزداد إيقاع ضحكاته جمالا عندما يسمع زوجة ابنه وهي تطلب منهما الإسراع بإنهاء المعركة فهي تريد اللعب أيضاً..

- يا بنيتي الصغيرة، إن أدمنت هذه اللعبة سوف تنقلب حياتك رأسا على عقب..
- نعم، سوف أتخيل كل شيء وكأنه ساحة معركة، وسأتصرف دائماً كأنني جندي يقاتل في حرب عبثية.. لن تنقلب حياتي يا صديقي، ولن يتغير فيها شيء.. أنا ألعب الشطرنج كل يوم، مع نفسي والآخرين... لكن المشكلة الحقيقية في كل هذا هي أنني لا أعرف أبداً من ربح اللعبة ومن خسرها...

يَشْتَمَّ تولستوي رائحة الجدية التي بدأت تخيم على الأجواء مع نظرات زوجها التي لم تَخْلُ يوما من معنى وهي تخترق جسدها بحثا عن منبع هذه العبارة الغامضة التي سمعها للتو..

- هذه ليست مشكلة على الإطلاق يا عزيزتي.. كل ما عليك فعله هو تخريب الرقعة القديمة وإعادة ترتيب القطع للبدء بلعبة جديدة.. هذا كل شيء..

تستمر في استفزاز قدراته الارتجالية وقد انتابتها رغبة مفاجئة في تحريك عصا من زجاج في أعماق الجرح الغائر:

- وماذا عن لعب الشطرنج مع الموت؟

- وهذه أيضاً ليست مشكلة، يكفي أن تضعي سبابتك على رأس ملكك وتسقطيه على الرقعة قبل بداية اللعبة...

يقهقه إعجابا بأفكاره النيرة.. يقهقهان معه، حتما لأنه لا يسعهما سوى تصديقه.. يضحك الجميع.. وهناك، في الطابق العلوي، يُسْري إدوارد بزوجته إلى جحيم المنتهى مبدلا بذلك خرائط العالم وملامح التاريخ للحظة.. لحظة عابرة وأبدية في آن...

تتمتم لنفسها بهدوء: (وهذه أيضاً طريقة جيدة للعب الشطرنح مع الموت.. ومع كل شيء.)

* * *

(12)

في الساعات الهاربة بين انبلاج اللون الأبيض الخافت من رحم الأفق وانتشار الأنوار الفاقعة على أجواء المدينة، يحلو له الجلوس قرب النافذة وتأمل هذا الانقلاب العجيب في حركة الكون.. أما زوجته فتنام مسلمة قلقها، الذي تضاعف في الأيام الأخيرة، لأراضي الصمت والظلام الأزرق حيث تلمع من حين لآخر شهب تخبو خلف الجبل..

زوجته تنام كمن يكتب قصة صعبة نظن في كل منعطف أنها بلغت نهايتها لكن طريقا جديدة تظهر فجأة وترغمنا على الاستمرار.. تنام كمن يهرب من رؤية يوم آخر يولد خلف أسوار

الضباب ويسحق جمال الليل وصدقه..

تتقاذفه أصوات الفجر الأولى والحفيف الغامض لأجنحة الخطاف وهي تمر مسرعة على أسوار المدينة.. تهرب هي الأخرى إلى الفراغ الكبير.. وكأنها تخاف من ضجة البشر وركضهم الهستيري خلف شيء غامض..

الهمهمات الأخيرة للصمت تداعب وحدته الصباحية المعتادة وتدغدغ رغبته في الخروج.. ولكن إلى أين؟ هاقد بدأ كل شيء يفقد لونه منذ توقف عن الكتابة.. أودع شخصياته لدى ميتم على الطريق الصحراوية وعاد يتيما أكثر منهم جميعا، يحاول ملء الفراغ الموحش بصخب العمل والمشاغل اليومية وليالي الحب الأرقة؛ لكنه يعود دائماً ليفكر بهواجس فرانك الذي قتل زوجته لأن حبه صار أضخم من أن يحتويه السرير وكلمات الغزل الميتة.. وأحلام روزي التي ترقص في الملاهي بحثا عن رجل لا يسألها بعد أن ينهي عمله معها: "كم؟" بل: "هل تقبلين بدعوة للعشاء في مطعم بعيد عن هذا الملهى؟".. ومتاهات سوزانا التي لم تعد تجد في تربية أطفالها متعة تغنيها عن تأمل البواخر المسافرة إلى ما خلف البحر الأحمر.. وقلق جورج عندما يجد نفسه وحيدا في البيت ومجبرا على التفكير، التفكير بكل شيء، بالتفاصيل الصغيرة، بعيني قطته السوداء والحياة السرية للنجوم عندما يكف عن مراقبتها في لحظات التعب...

مازال يبحث في فكره عن طريقة لتخليصهم جميعا من الألم الكوني والحيرة المقطرة التي لا تشوبها القناعات الجاهزة

والارتياح لسهولة الحياة على الكوكب.. مازال يحوم حول قلاع صمتهم ويصرخ دون أن يسمعه أحد.. فيكتشف آخر الأمر أنهم تخلوا عنه أيضاً، فالكتابة وحدها قادرة على إملاء رغبتها عليهم واللعب بمصائرهم جميعا عندما يصير الكاتب عاجزا أو رديئا..

والكتابة أعلنت له عن قرارها في ذلك اليوم: النشر أو لا شيء.. يفهمها جيدا ولكنه يصر على موقفه.. ربما خوفا من ضياع شخصياته وسط زحام الشارع إن هو أخرجها إلى العالم.. الكتابة لا تهتم بما سيحدث بعد نشر غسيلها غريب الجمال أمام الناس، فهي تبحث عن مجدها الشخصي.. إنها، تماما كالبشر، تفكر دائماً بجدوى وجودها والبصمات التي سوف تتركها على ذاكرة العالم حتى تثبت لنفسها وللآخرين أن وحده وجودها له معنى وسط كل تفاهاتنا... أنانية كغيرها من الفنون.. كغيرها من الملكات.. أنانية مثله.. لكن مجديهما خطان متوازيان لن يلتقيا أبداً حتى في تلك النقطة الغامضة التي يدعي الجميع أن كل التناقضات سوف تلتقي عندها..

تفاجئه رائحة الياسمين وقد أحاطت بعنقه من الخلف.. يسبح في بحيرة الأثير هذه ورياح أنفاسها تتلاعب بالكون على حبال الفجر.. تتخلل العاصفة الهادئة حبات مطر رطبة تداعب شعره وقفاه.. يلقي برأسه على كتفها فينال وجهه حظه من تراتيل الحب الصباحية، مستفيدا من غفلة الشمس أو ربما طيبتها وهي تتباطأ في نشر أنوارها على كل شيء، ليصير كل شيء مدعاة للقرف...

* * *

(13)

المرض..

أجمل ما في المرض أنه يأتي دائماً في الوقت الذي لا يبقى لنا شيء لنفعله..

هاهو يخرج من عند الطبيب، محملا بكلماته الحزينة: "آسف.. سرطان كبد.. ثلاثة أشهر.. العلاج الكيميائي والأشعة سوف يمنحانك سنة على الأكثر.. آسف.." .... يحاول أن يفكر بكل هذا لكنه لا يجد الأسباب الكافية.. يريد أن يذهب إلى البيت ويحتضن زوجته، كعادته في آخر كل نهار..

ثلاثة أشهر تشبه إلى حد ما ثلاثة أوراق بقيت في شجرة وتحاول أن تصمد أمام رياح الخريف.. تشبه ثلاثة ابتسامات تلي بعضها على ثغر طفلة صغيرة.. تشبه ثلاثة نقاط يحاول الكاتب أن يقنعنا أنه أنهى بها روايته.. تشبه ثلاثة غيوم تلتحم في نقطة ما من السماء لترسم شكلا أليفا لا نعرفه لكننا نتذكره..

الملفات مغلقة بإحكام.. والرواية الوحيدة التي كان بوده كتابتها تتلو نفسها على ذاكرة لامنطقية ولكنها موجودة في خلايا كائن مجهول، صامت، أعمى، ينتظر لحظة ما للقدوم إلى العالم.. والمرأة التي لن تتكرر في الأزمنة الميتة التي ستولد قريبا، تحبه بطريقة ما، وسوف تجد في ذكراه ملجئا باردا عندما تخنقها حرارة الأشياء التي تكرر نفسها.. أما الموت فمجرد صباح تتوقف عنده شهرزاد عن حَكْيِها واعدة السلطان ببقية الحكاية في

الليلة القادمة..

ولكن، من هي شهرزاد؟ من السلطان؟ ما شكل الليل؟ وما قول الصباح في كل هذا؟

* * *

(14)

الألم..

أجمل ما في الألم أنه يفتح لنا بابا من بعيد، ندري أن الحياة تنتظرنا خلفه.. ونركض للوصول إليه.. ولكنه يبتعد.. نستمر في الركض.. ولأول مرة، نعرف جيدا أننا سنصل.. فالألم وحده قادر على الالتزام بفكرة البداية والنهاية.. يفهم عطشنا إلى بلوغ الضوء المحرم.. ندفع له ضريبة العبور.. وعندما نصل...

زوجته بجانبه كعادتها.. تنظر إليه مبتسمة.. وبعض الدموع تحاول الكلام في عينيها لكن الصمت يطلق بخوره الساحر على أجواء الغرفة ويقنعهما بألا حاجة للكلام، لا حاجة للبكاء ولا حتى للأنين..

زوجته وقدرتها على إحياء ما تبقى.. على إشعال الجمرات المحتضرة.. بوده أن يقول لها أنه يحبها.. لكنه يعرف ألا داعي لذلك.. حين يموت، سوف تفهم جيدا كيف أحبها وإلى أي حد من الجنون واليأس قاده هذا الحب.. موته سيكون بمثابة الرواية التي كانت ستشرح لها كل شيء..

أما الكتابة فربما يشعر بلذة ما وهو يتركها وراءه مع قهرها

وهزيمتها أمام تمسكه بـ"وهم النبوة" .. والأشياء الأخرى لا تهم سوى ذاكرة الأرض.. وهذه تحتاج إلى انتماء جديد، إلى أرض أخرى تصلها بالسماء..

أما الباب الذي يُفتح من بعيد فوحده قادر على تصفية الحسابات مع كل شيء، والبدء بروايةٍ شخصياتُها تعيش فقط من الهواء الذي تتنفسه من الفراغ.. لا حاجة للماء، لا حاجة للأكل والجنس.. الهواء ونظرة شاسعة تمتد إلى هناك..

والأسئلة التي لا تموت، سيكتفي موته بإقصائها من عالمه.. ولتستمر في الحياة بعده.. سيموت وسيموت كل شيء فيه.. سيصير الماضي مجرد ظل باهت لن يتذكره جيدا.. سيظل يبحث عن تلك الذكرى الملحة التي لم تحدث ولكنها جزء من حياة لم يعشها "حقا" بل عاشها "بشكل ما" .. ذوق القهوة والسجائر والقبلات.. لون الستائر والفجر والشوارع.. حروب الشطرنج وصهيل الفرس ونكهة الغروب... كل هذا سيمَّحي حالما يخطو خطوته الأولى في عالم اللاجاذبية والفراغ المزمن.. سينسى ما حدث وسيبحث عن طريقة ليتذكر ما لم يحدث.. سوف يجد هناك القاموس الذي سيقنعه حتما بمعنى الكلمات وتفسير الظواهر الغريبة، كالحياة مثلا...

يتناول كوب ماء ويفرغ محتواه في جوفه، ينظر إلى زوجته مبتسما:

- يخيل إلي أني سأظل على احترامي للماء حتى في حياة لن أحتاج فيها إليه لأعيش...

محاولة اختراع الفصل ما بعد الأخير

وكثيرا ما تصير الحياة مشتهاة ورائعة الجمال عندما نكافح من أجلها.. تماما كذوق التفاحة البعيدة الذي يصبح ذوقا للأبدية والأسرار عندما نخاطر بحياتنا ونحن نتسلق الظلام لنقطفها من ذلك الغصن الشاهق المتدلي على الهاوية...

عندما رأيت "تولستوي" يتسلق ظهر كولومبيا للركض بها خلف الموت، لم أفكر للحظة بأنه سينجح هذه المرة ويصيب هدفه..

كعادتنا، إدوارد وأنا، ركضنا خلفه على متن "فينوس" و"أفروديت" دون أدنى أمل باللحاق به.. لكن رائحة الغبار المنطلقة من كل شبر تراب يطأه خف كولومبيا الساحر تستفزنا دائماً وتقنعنا بسهولة أن المهم في الفروسية هو الركض، الركض وليس الوصول..

وعبر صخب الحوافر وأنين الأرض تحت جيادنا، كنت أمازح إدوارد بخصوص زوجته صارخة ليسمعني: "ألم تمل منها بعد؟".. فيجيب ضاحكا: "أظن أني سأقتدي بك وأنتظر حتى تموت".. آلمتني كلماته، لكن البرية امتصت كل ذلك وغمرت الأشياء بلون شفقي يسحق كل ما عداه من آلام وذكريات متعبة..

تحولت كولومبيا إلى نجمة هاربة تشع من بعيد، ولكن إدوارد أصر على الركض رغم تسارع الأنفاس وضيق الصدر بعد مطاردة

فاشلة للمستحيل.. أنهل من إصراره قوة جديدة وأستمر معه دون أن أتخيل أنها ستكون رحلتنا الأخيرة إلى جزيرة ما وراء الغروب..

توقفت النجمة فجأة أمام نبع ماء متدفق من شق صغير في الهضبة الصخرية، نزل الفارس لشرب ما تبقى من لعاب الحياة... وعندما وصلنا أخيرا إلى حيث تبدأ الحكاية من طرفها الآخر، وجدنا تولستوي مستلقيا على الأرض، جامدا وعلى ثغره تلمع ابتسامة أخيرة...

* * *

- منذ ما يقارب التسعين سنة وهو يدب على الأرض كإله مخملي.. ومنذ أكثر من عشرين عاما وهو يركض بفرسه بحثا عن الموت.. فلماذا تصرين على البكاء؟

ربما لا يفهم إدوارد أنني لست أبكي والده بل اختفاء أسراره معه.. لست حزينة وإنما غاضبة.. غاضبة لأني لم أتمكن يوما من هزيمته على رقعة الشطرنج مذ أصبحت مثل ابنه مدمنة على اللعب معه في ساعات الليل الأخيرة، ولأنني لن أكتشف يوما ذلك المكان الغريب المجهول الذي وحده استطاع الوصول إليه على صهوة كولومبيا.. غاضبة لأن كولومبيا ذاتها لم تعد تسلم عنانها لأحد بعد موته.. صامتة كأرملة وفية وقابعة في الإسطبل بانتظار موعد رحيلها وقد نسيت كل شيء عن حبيبها الجواد المنحدر من فصيلة رديئة الذي حرمها تولستوي من الانتشاء بين ذراعيه.. غاضبة هي الأخرى لأنها لم تقو على الموت مع سيدها.. وهاهي تذبل

ببطء في عتمة الوحدة والأسرار المغلقة...

وهذه الغرابة اللعينة مازالت تخيم على كل شيء.. رائحة الفجر المتدلي كثعبان أبيض من خلف أسوار البرية صارت تنتشر في مسام جسدي كوعد خافت لشيء رهيب وحتى صوت إدوارد العذب أصبح ينتشر في حنايا الروح مصحوبا بعواء العاصفة التي ستقتلع كل شيء..

وتلك الابتسامة الأخيرة التي لن ينجح أحد في قراءتها حتى وإن أفلحوا في قراءة ابتسامة الموناليزا، مازالت تستمتع بتحريك الإصبع الزجاجية داخل الجرح الغائر.. أي جرح؟ متى ولد وأين صارت مملكته تمد حدودها؟ تراه صدى خافتا لكلمة كان بود تولستوي البوح بها قبل أن يفتر ثغره عن ابتسامته تلك؟ تراه الطريق إلى غيمة المرأة السجينة ومجهول زوجي وريح كولومبيا؟ هل ستموت هي الأخرى؟ ولم لا؟ فرس كالأخريات سوف تهرم يوما ما وتحتضر في عرين التبن والعلف دون أن تقول شيئا، دون أن تبوح بمكان الكنز المدفون..

لا أستغرب هذه الغرابة التي صارت تسحق كل الألوان.. فمنذ انطفاء سنوات الطفولة والنسيان، كنت أعرف أن هناك رواية تنتظرني لأنفض عنها الغبار وأنشرها في دار الشمس، بطلها الوحيد هو رجل انقسم إلى اثنين، إلى أب وابن.. بطل اعتقدت أنه لن يموت قبل أن يسير بروايتي إلى نهايتها، إلى خلودها.. وهاهو يموت واحدا تلو الآخر.. أما الرواية فلم تصل إلى أي مكان.. بل تنام الآن بين خلايا كولومبيا التي ستموت هي

الأخرى دون أن تقول لي شيئا... فلِمَ أستغرب من الغرابة وقد تحولت من أغنية رتيبة للركض خلف المجهول إلى حقيقة هادئة، مستمرةً في الألوان والأصوات والوجوه، وأبدية رغم تغير كل شيء من حولها؟ وأنا بين الألم والاستسلام، أصبحت أعرف كل هذا.. فلم الخوف؟

* * *

- لماذا تتوسلين إليها هكذا؟ تعرفين أنها لن تذعن لك أبداً.. دعيها وشأنها وتعالي إلى غرفتي.. رانيا ذهبت إلى المدينة لتزور عائلتها.. نحن وحدنا في البرية...

هل حقا، هذا هو الإدوارد الذي وعدت نفسي بالموت إن لم أمتلكه وسط البرية؟ هل هو نفسه ذلك الرجل المقطر صمتا ولامبالاة الذي يجلس مع كتابه في الركن المعتم دون أن يشعر بما يدور حوله من حروب شطرنج وسيمفونيات شهوة يعزفها جسدي؟ ذاك الذي تدحرجتُ على إيقاع أنفاسه خارج مدار الكون تحت أنظار السماء والفرس حتى كادت أنفاس الإنسانين فينا تصمت لهفة وتعبا؟

تراه تغير بسبب الزواج أم أنه كان هكذا منذ البدء وقد تكفل جنون شهوتي برسم رجل آخر من ملامحه ليحتل مكانا ضيقا داخل الرواية الضائعة؟ تراها جنية الليل تمنته بكل غريزتها العمياء ونسجت من خيوطه الرثة أسطورة حية لتقنعني بأنه يستحق العناء؟

ها هو الآن، كأي رجل مقطر في رمل رغباته الهاربة، يطلب مني التخلي عن محاورة كولومبيا واللحاق به إلى سريره.. يظن أني أتوسلها ظهرها وسرعتها الخرافية.. ولا يدري كم من

الكلمات تفلت عبر صمتها وترسم لي بعض الخطوط الباهتة لما قد يكون خريطة للكنز المفقود أو عبارة ما من الرواية المدفونة تحت أحشائها.. (وأنت تريد مني اللحاق بك إلى غرفتك؟ لماذا وأنا أعرف مكانها وأحفظها عن ظهر قلب مع كل تفاصيلها وأثاثها وألوان الجدران والوسائد والشهقات العابرة؟ ألم تعرف بعد أن غرفتك صارت غريبة ومرعبة لأنها منسوخة في الذاكرة تماما كالصالون والمرحاض والكتب والخشب المحترق في المدفئة؟)

* * *

هناك في لحظات الصمت القليلة التي تتبع محاضرة ما تجليات هاربة لطعم السأم العالق بالشفاه والنظرات الضائعة في محاولاتها عبثا إظهار الاهتمام بما يقال.. تنتابنا دائماً رغبة في الصراخ خلال هذا الصمت.. الصراخ بالمحاضر الذي يعتقد أن كلماته وصلت إلى روح المستمعين بسحر بلاغها وانسجام متاهاتها اللغوية.. الصراخ بالأضواء التي تحف القاعة لتمنح بعضا من الحياة لكل ما يموت مكررا موته منذ عصور ككبد "بروميثيوس" الذي تأكل النسور منه عقابا على سرقته للنار المقدسة...

ها هو صديق زوجي يداعب ذكريات مجده الغابر على قمة الإبداع المناطحة لسحاب منخفض وعقيم، يتكلم عن صديقه في ذكرى موته الخامسة وكأنه يكتب قصيدة جديدة، أو ربما يتوسل للشعر أن يكتب قصيدة من وحي كلماته الممزقة ليستعرض عن طريق زوجي الميت قدرته التي لم تمت بعد على الخلق... يصمت أخيرا كأنه سمع توسلاتي ورأى في عيني رغبة عاجلة في البكاء قيئا...

والصمت.. ذاك الذي يعيد رسم كل ما قيل ليجعل منه أغنية أخيرة لظمئ الفرس وتعبها من الركض خلف بحيرة سرابية.. وهذه السنوات الخمس التي مرت على رحيله دون أن تدعني أستوعب حقا ما حدث.. دون أن يبقى من تواصلي مع عالم الخارج سوى الغرابة التي تخيم على كل شيء.. حتى على دموع خافتة في صدقها تنحدر ببطء على وجنتي هند التي لم تُشفَ بعد من الفاجعة ومايك الذي مازال يكافح ليقنعني بنشر أعمال زوجي..

أقول له أن ملفات رواياته مغلقة بكلمة سر لكنه لا يصدقني.. ومعه حق.. هناك من الحقيقة نصف أظهره للجميع ليتركوا سرية عالمه بسلام ونصف آخر أحاول تحليله بدقة قبل أن أبوح به لأي كان..

لم أصدق ليلتها عندما حاولت فتح ملفات زوجي باستعمال كلمة سر اخترتها صدفة من حياة بيسوا دون أدنى أمل في نجاحها مع لغة الكاتب فيه الذي يلجأ دائماً إلى حنين اللغة القديمة ليقفل على أبواب الصمت إلى الأبد.. ولكن كلمة بيسوا فتحت لي كل شيء كنافذة مختبئة خلف الجدران تطل على حدائق سرية تمارس فيها الخيل الحب كقصيدة راقصة على ألحان الريح والمجهول.. وهكذا نجحت "أوفيليا" في تكسير حاجز الصمت ومنحي فرصة خيانة زوجي بطيبة وإهدائه شهرة ما بعد الموت: الخلود..

أوفيليا..

حبيبة بيسوا التي رسمت لنا بعد موته وجها جديدا للحب.. الرسائل المزدوجة منه ومن ذاته الأخرى التي تحذرها من علاقتها

بالنسخة الأصلية وتنصحها بالهروب بعيدا.. وردودها الطريفة للذات الأخرى التي تعرف جيدا أنها المقاتل الذي يسكن أعماق حبيبها ويرفض مسالك الحب المليئة بالفخاخ والشموس العابرة؛ تطلب من بيسوا الآخر ألا يتدخل بينها وبين بيسوا الأصل وتمنعه من الكلام بسوء عنه وتصرخ به أنها تحبه بالرغم من محاولاته الفاشلة للتفريق بينهما..

لم أفكر يوما أن أوفيليا امرأة رائعة.. في بساطة تعلقها بمن تحب وتقبلها لكل جنون قد يمارسه عليها.. امرأة أحبت كاتبا متعدد الذات واستطاعت أن تتعايش مع كل بيسوا عرفته فيه ولم يكن ذلك بحثا عن غيمة ضائعة بين سماواته أو خريطة كنز مدفون في صحاريه، بل ببساطة لأنها تحب..

لم أفكر أن أوفيليا زوجي قد تكون امرأة أخرى عرفها قبل أو خلال زواجنا.. كنت أعرف أنه مثلي تماما يعبد عالم بيسوا بكل ما فيه من نساء وأوراق مخربشة ونصوص غير كاملة ومعارك يومية مع كل شيء يحيط به ويحتويه.. وربما كان يبحث فيَّ عن أوفيليا جديدة تتجول بين دهاليزه المظلمة دون خوف ودون فضول بل بحب واضح، بسيط ومحلق بعيدا عن كل شيء... هل نجحت في أن أكونها يوما؟

وانتابتني فجأة غيرة غريبة من أوفيليا.. لم يَكْفِها أنها سبقتني إلى بيسوا وشغلت مساحات العشق والجنون "العادي" في عالمه الشاسع بل واستمرت بعد موتها في التجول بين القلوب الباحثة في لاطمأنينة حبيبها القديم عن صورة واضحة ذات لون واحد

تحت عين الشمس لذواتهم وموقفهم من الكون.. هل أحبها وكان حبه المستحيل هذا السبب الوحيد الذي دفعه للهروب في الزواج من نداءات الجنون وأبوابه نصف المفتوحة؟ هل وجد فيَّ وجها آخر لها أو صدى لصوتها الذي لم يسمعه ولكنه تخيله كعادته مع طلاسم الماضي؟ هل كان يطلب مني بصمت أن أكف عن الهيجان كدُوار وسط الصحراء وأصبح أوفيليا الهادئة، المتعذبة في صمت والمتشبثة بعذابها تشبثها بالحب وبجلاده؟

عاودت قراءة كل كتاباته كمن يشَرِّح جثة، كمن ينبش قبرا..

تعبر الشخصياتُ الرئيسية نصوصَه كظلال شفافة تضمحل مع النور.. اكتشفت فجأة أن كل رواياته كنهها الفراغ وليس أي شيء آخر.. فأبطاله أشباح تمر بسرعة في صحراء الكلمات دون أن تلعب أي دور في تحريك عجلة الأحداث، دون أن يكون لغيابها أي أثر على مضي القصة إلى نهايتها.. موجودة وغير موجودة تماما كذلك الحزن الهادئ الذي ينتابنا في لحظات السعادة القصوى.. تماما كظل يتبعنا كل يوم ولكننا ننسى وجوده ولا نعيره أي اهتمام.. أبطاله إطار رفيع لكل صفحة من الكتاب.. تموت كل الشخصيات لكن الرواية تستمر على مر الصفحات، دون حوار، دون نبض حياة يجري في عروق إنسان أو حيوان أو ذكرى، دون تفاصيل... تستمر في الفراغ الصاخب بالأصوات التي يلدها الصمت..

يتحدث الصمت في رواياته، يقول الكلمات التي لن ينجح البطل في قولها، يكتب على جدران الهواء تلك القصيدة الغريبة

التي ماتت كل الشخصيات قبل كتابتها...

فرانك، ليليان، كاميليا، لودوفيك، تيودور، سلمى، حنان، إيفيت، امرأة البيت المهجور وجروها، الذئب، النسور والغربان... كلهم جمل اعتراضية لا يتغير المعنى بحذفها.. كلهم رذاذ لا دور له سوى طلاء المشهد بلون شفاف نرى كل شيء عبره، تماما كما سنراه من دونه.. وأكتشف فجأة أن الذي يحرك الرواية ويهبها الحياة هو كلمات زوجي التي تصف الفراغ والصمت.. تتغلغل إلى أعماق الجمود الكوني الصاخب لتنتزع من أحشائه بذورا للحقيقة.. وأجد نفسي مجبرة على الانتظار.. انتظار أن تنمو الأشجار وتبعث في الأرض جذورها وتغطي السماء بأغصانها العملاقة..

وقبل أن أفهم سر الرواية كاملا، أجد نفسي مكبلة بحكاية البطل الوحيد الذي لا يظهر ولكنه موجود، البطل الذي يكتب ويعيش في الرواية في آن واحد: زوجي...

وعندما أحاول إقناع مايك بحجج واهية، لست أنا من يتكلم بل روحه التي مازالت قادرة على الحياة في كل شيء تَعَرَّفَ إليه.. إنه هو من يدافع عن سرية عالمه وليس أنا.. هو من يصر على محاربة إغراءات الخلود التي لم يستطع بيسوا نفسه مقاومتها.. هو الذي يضحك من كل شيء يحدث لي ولذكراه المشتعلة، ساخرا من الحب والصداقة والاحترام وحتى التقديس الذي ينفثه الآخرون على هيكله ربما ليعتذروا أو ليبقوا هم في ذاكرته الخالدة... وأجدني مضطرة للصراخ بمايك كمن يكشف للناس عن ديانة

جديدة انبلجت له فجأة من رحم الضباب:

- ألا تفهم أنه الوحيد الحي بيننا جميعا؟ وأننا كلنا أموات يصارعون النسيان ليلزموا ذاكرة الإنسان والمبدع فيه؟ ألا ترى أن ما تطلبه مني الآن ليس سوى محاولة فاشلة لتحفر اسمك على شاهدة قبره كميت ضاعت جثته وحُرِمَ من مسكن أبدي تحت التراب؟ كل ما سنفعله برواياته يا صديقي سيكون في خدمة مجدنا الشخصي، لإحياء ذكرانا الميتة في عالمه الحي دائماً.. فدعني وشأني أرجوك...

ينظر إلي مايك بذهول يلونه الخوف بالأصفر الباهت ثم يخرج هاربا من سيارتي.. ربما لأنه لم يكن يعرف كل هذا عن نفسه.. وهاهو الآن يركض إلى بيته مع هذا الاكتشاف المرعب بأنه ميت تحوم ذكراه حول رواية زوجي وتنجح أحيانا في إلقاء بعض الظلال والدموع على مشهد الصحراء الشاسعة حيث وحدها خيمة صغيرة وسط الرمال وبداخلها ينام الرجل الوحيد الذي ينبض بالحياة...

* * *

وعندما بدأ تولستوي بالظهور لي من خلف أسواره وقلاعه المحصنة بسهام البيادق والفرسان، ناداه شيء غامض في أقصى البرية، ورحل هو الآخر ليولد من جديد في حياة لا خوف عليها من الموت...

كلاهما اخترع طريقه للغيمة المفقودة ونجح في الوصول.. كنت كشمعة أضاءت لهما ظلمة الدهاليز الحلزونية لكنها لم تتمكن

من السفر برفقتهما، انطفأت ببطء واستمرا هما في السير في العتمة، بعينين قادرتين دائماً على تحسس الطريق ورؤية ما يخفيه الظلام..

أما أنا فقابعة في مداري المعتاد، البيت والعمل وسهرات مع الرفاق؛ دون أن يكون لذلك أي ذوق متميز في شفتي، دون أن يقنعني حقا بأني موجودة وأنني مثلهما أبحث عن فتحة نور للخروج إلى الحياة..

أستمر في كل شيء ورائحة الغرابة المزمنة تتدفق من نظرات الآخرين، من ابتساماتهم المتعبة، من الليل ومسام جسدي المتقاذف بين سأم الوحدة ولهب الليالي ذات الحرارة العابرة..

تبخر السائل الملوَّن الذي كان في القديم يقود عيني لرؤية الأشياء من الخارج؛ والآن صار بمقدوري التداخل معها، الانصهار فيها لأرى كل شيء كما هو: باردا، جافا، غريبا وقد غسلته مياه المطر لتخلصه من قشرته وتعيده إلى لونه الحقيقي: الرمادي...

تباغتني من حين لآخر طرق جديدة تستفز بعض الآمال المتداعية التي نجت من انجراف الأرض تحت قدمي، فأسافر إلى حيث لا أدري، أطارد الشمس والعواصف العابرة، أنبش مقبرة الذاكرة لتمنحني إشارة صغيرة لما قد يكون التفصيل الوحيد الذي تحتاجه الرواية لتكتمل وتموت.. لكني في كل مرة أعود مكبلة بسلاسل جديدة، أثقل وأكثر قسوة..

في الليل، أشعر بشيء هائل الضخامة يبرك على صدري

المنهك من امتصاص السجائر، يرافقني في الرحلة اليومية للاختناق والأرق، يستمر في التصاقه بي حتى في اللحظات النادرة التي تنزلق فيها قدمي إلى هوة النوم؛ وهناك، في تلك الأراضي البعيدة، تنطلق من كل شيء الرائحة نفسها ولكن أكثر قوة وأقدر على النفاذ إلى كل مسام الجسد والروح لتنتشر غازات الموت ويصير النوم جحيما سريا أحاول بشتى الطرق الفرار منه..

ثم الأرق، وتَتَبُّعُ كل ما يحدث في الطبيعة من تحولات رهيبة: الألوان الداكنة التي تغطي الشوارع والبيوت وضوء القمر الذي يحاول عبثا غسل المشهد بماء فضي زائل يتبخر عادة قبل أن يصل إلى قلب الأرض.. مواء القطط المتشردة مختلطةً بضحكات بعض السكارى الذين يدورون حول الفراغ في رقصة مجوسية ساحرة.. أصوات الليل الأخرى التي تمتزج بكل شيء لترسم هذه اللوحة المخيفة والباردة.. لتأتي بعد ذلك أضواء الفجر الأولى وتلون المشهد من جديد دون أن يتغير فيه شيء..

أتابع كل هذا قرب النافذة التي ظلت قادرة على تحمل عبء جسدي المتكئ عليها دائماً.. وحين أهرب من ويلات الوحدة الضاجة بنواح الليل، أجدني في مكتبي، أعيش كل تفصيل يحدث ولا يحدث بنفس الخوف، وبنفس الشوق إلى الخروج...

تكرر الساعات المتثاقلة نفسها على مر سنوات، وأنا أصر على المضي قدما دون أن أتحرك من نقطة البداية.. أسير في دائرة من الرمال المتحركة، وكلما خلصت ساقا تغرق الأخرى في سيمفونية أبدية رتيبة: لا فرصة لدي للتقدم ولو خطوة واحدة

ولكني لا أستطيع التوقف عن السير، فذلك سوف يعني الغرق والاختناق بالرمل والموت...

وفي كل لحظة، تعاودني عبارات زوجي في رواياته.. لعبة الأصداء والظلال التي تميزها عن سائر ما يُكتَب.. الاكتفاء بشخصية واحدة أو اثنتين على الأكثر لتعبر الرواية كشبح هارب وليزداد ثقل الفراغ ويصبح لكل شيء رائحة ولون وطعم مختلف.. لعبة الجحيم المكتوب الذي يعيد صياغة العالم بدءا من الداخل المتعفن اللزج المنهار ليصير هذا الأخير الواجهة البارزة أمام كل من يحب النظر.. لعبة الحيوانات التي يكبلها صمتها ويمنعها من قول أشياء رهيبة سوف تخلص البعض من تساؤلاته وترمي بالبعض الآخر بين شقي حفرة مظلمة يختبئ الموت في قاعها؛ الموت أو الجنون...

وفي كل لحظة، أسمع صهيل كولومبيا التي وحدها تملك جميع المفاتيح وتعرف كل الطرق التي تؤدي إلى الغيوم الضائعة والوطن المفقود.. وهاهي الآن، وحيدة كملكة مخلوعة، صامتة كما يجدر بها أن تكون، حزينة لأنها لم تدفن مع ملكها، متعبة من الماضي الثقيل الذي وحده مازال قادرا على امتطائها... فرس ليست كالأخريات، تنتظر أن تموت كالبقية، لتصل عكسهن جميعا إلى تلك المزرعة البعيدة، المحلقة بين السحب والأرض، المفتوحة للريح والمجهول؛ هناك حيث ستجد تولستوي ومعه جواد من عالم آخر، ينتشي معها في لحظة معلقة خارج الزمن ويهبها المُهر الذي لطالما حلمت به: المُهر الخالد..

وفي كل لحظة، تتزاحم في حلقي غصات مجهولة المصدر، رغبة مستمرة في التقيؤ وطرح ما يعكر الروح إلى الخارج، حنين إلى زمن كنت فيه مجرد يرقانة خفيفة وحرة تتجول بين بحيرات الحياة دون أن يغريها ذلك بالارتقاء إلى ما هو أكبر من حجمها، حتى وإن كان سيمنحها لقب الإنسان...

وهناك، في الضفة الأخرى من الرواية الضائعة، يركض العالم عاريا وشفافا في زيه الجديد.. يركض ضاحكا وقد صار هو الآخر جزءا من فسيفساء نورانية تعرف كل قطعة منها أنها تنتمي لعقيدة خالدة، ولا بد من التماسك والانصهار مع البقية لتستمر أغنية الكون جميلة وهادئة...

والهواجس اليومية التي لا أسماء تخفف من حدتها، تتابع ركضها في خراب الداخل، تغرز أقداما كالخناجر على كل رقعة تراب وتعوي لينقل الفراغ الممتد إلى ما لانهاية أصداءها التي تتكاثر وتنمو وتتقوى قبل أن تصل إلي؛ في وجوه متعددة لكن وقع صوتها واحد لا يتغير، أحيانا تزورني على شكل كابوس طويل لا ينتهي حتى عند استيقاظي من النوم، وأحيانا تختبئ بين الكتب والوسائد وزخارف السجاد الذي كثيرا ما أمضي ساعات صامتة في تأمله دون هدف، وأحايين أخرى تشع لي من خلف عيني رجل عابر، بين ذراعيه، في رنين قبلاته وطعم أسرار جسده.. .هواجس تَلَبَّسَتْ بقشرة الكون لتصير بعضا منها.. ويوما بعد يوم، بصبر من يعرف أنه سيصل حتما، تنتشر كالجراثيم في كل شيء، تسحق كل ما تجده ببطء، تمحي الألوان وتخمد

بعض الجمرات الصغيرة التي تشعلها ريح خجولة مسرعة، تبسط نفوذها على وجه العالم وتنظر إلي من حين لآخر وقد افتر ثغرها الهائل عن ابتسامة مرعبة...

* * *

أشتاق إلى زوجي وأبيه وأدري أنهما وجهان لذكرى واحدة.. أحن إليهما كما يحن الموت لموته الشخصي، الذي لن يناله إلا بعد الفناء العظيم.. متعبة مثله ومثل كولومبيا وبقية الأسرار التي تريد أن تكتشف سرها لترتاح.. مثقلة بهمس الشموع الخمس والثلاثين التي انطفأت هذه الليلة تحت تصفيق الأصدقاء.. حزينة لأن القطار يمر لامباليا كما الوجوه التي تلمع خلف النوافذ.. نادمة على شيء غامض أدري أني ارتكبته في زمن ما ومازالت آثاره عالقة بتفاصيل النسيان الذي يقود إلى ذاكرة أبدية منسابة من كل شق في كل جبل تحت كل سماء.. واقفة بذهول أمام حفنة رمل تتلاعب بها رياح الصحراء الهادئة ولا أعرف بأية ذرة أبدأ جمع العمر المتناثر هنا وهناك.. أعالج جرحا لينفجر آخر كنت قد انتهيت من تضميده للتو.. وأتبعثر بين برك الدم المتعفن الذي صارت عيناي تريان كل شيء من خلال رائحته ودوي جريانه الرتيب في العروق.. أبتسم من حين لآخر عندما أدرك أن هناك قوة متجددة تدفعني دائماً للاستمرار، للمحاربة من أجل البقاء.. وأشعر أن ما يفلت من قبضتي ليس الرمل المتدفق وحسب بل الخوف وأرق الانتظار والأحلام المستحيلة..

أجدني للحظة امرأة أخرى بعد تجاوز أوهام الشباب

والجنون.. أفكر بلون الستائر التي سأشتريها غدا من المحل المجاور وبطعم النبيذ الذي يتدفق غزيرا في رحم الكؤوس اللامعة تحت ضوء القمر.. أتهيأ لاستقبال الهدايا الثمينة التي أكافأ بها على بقائي جميلة وجذابة كطفلة رغم زحف خمس وثلاثين سنة على جسدي.. أرسم في داخلي أشكال الابتسامات والكلمات الجذلة التي يجب أن تصدر عني عندما يغادر الجميع وأعود وحيدة كالعادة، مع بقايا الحفلة وصرير الليل الذي يهمس لي شيئا لا أريد سماعه...

امرأة لم يتغير فيها شيء سوى بعض الطقوس اللامجدية التي كانت تتسلح بها قديما لمحاربة خوفها.. هاقد تخلصت منه الآن ربما لأن قلق الليالي الصامتة والمنقحة بسم بطيء المفعول قد صار حدثا عاديا ككل الأحداث التي تعبر أيامها.. ووحدها الذاكرة المنصهرة في جذور العالم ترفض أن تستسلم وتظل شامخة كصنم خالد وسط كل الأشياء الصغيرة التي تولد وتموت دون أن توجد حقا..

* * *

حقيبتي خفيفة كذكريات علاقة عابرة والليل يتقهقر ببطء فاسحا المجال لأنوار الفجر الأولى.. لطالما آلمني هذا المشهد، ربما لأن زوجي كان يجلس في كل صباح جديد قرب النافذة ليتأمل تحولات الكون ويبتسم بمرارة قبل أن يستسلم لقبلاتي الصباحية المعتادة.. لطالما حدقت في انسحاق أصوات الليل ولونه البنفسجي الداكن مع روائحه النفاذة كعطر وردة برية مبللة بالمطر،

لطالما تساءلت عن المكان الذي تختفي فيه كل هذه التفاصيل السحرية ليحل محلها ضجيج المارة وزعيق السيارات السئمة كأصحابها..

والآن، تجرد كل شيء من أهميته فجأة، تضائل التحامي اللذيذ مع تفاصيل العالم وانصهاري في كل جزء من الطبيعة والمدينة.. ربما لأني لم أنجح رغم اختلاطي بالكون في الوصول إلى تلك النقطة النارية التي تنطلق منها جميع الشرارات والحمم.. ربما لأني لم أكرس نفسي للبحث عنها لكثرة الأشياء التي كان يتوجب علي إيجادها.. تبعثرت في قائمة من الأهداف المستحيلة وآخر الأمر، لم أحصل على شيء..

وعندما يصل الإدراك إلى هذا الحد من الألم والخيبة، كعادتي، أحمل حقيبتي وأسافر.. إلى بلد مازال المطر فيه ينزل بغزارة ويغسل الذاكرة والروح فأعتقد لبضع أيام أو شهور أني ولدت من جديد.. وهم لذيذ أكثر من غيره، يمنحني فرصة العيش في أرض أخرى، دون بيت محشو بروائح الفراغ وأصوات الماضي، دون روايات تقود كلها إلى جحيم مغلق، دون مناظر تتكرر كشريط سينمائي كل يوم بين العمل والبيت والسهرات الصاخبة..

عندما أحط جناحي في بلد آخر، يخيل إلي أني تقدمت خطوة واحدة في بركة الرمال المتحركة، وحين أعود كالعادة إلى هنا، أتقهقر خطوتين إلى الوراء.. والبركة تستمر في اتساعها البطيء والصامت لتغمر مدن العالم بأسره والكتب وأنواع الموسيقى

والأطعمة وذوق السجائر ونكهة الغيوم المتلاشية في ضباب الحشيش..

الطائر المعدني يحلق بي إلى إسطمبول حيث قررت إمضاء عطلتي السنوية، والتفرغ لرواية جديدة قررت العودة بها إلى عقيدة الكتابة.. وها هي جوهرة تاج الله تظهر لي في الأسفل، مختلطة الألوان، معطرة بتاريخ ملتهب ودموي والأصوات التي يعزف بعضها على بعض.. الفسيفساء الخالدة التي تبهرني دائماً بتنافر أجزاءها في إحدى فتحات التاريخ المهترئة وانسجامها في فتحات أخرى أكثر تماسكا ولمعانا تحت الشمس.. والأتراك الذين ورثوا جميعهم عن السلاطين القدامى وسامة الآلهة بشعرهم الأسود وبشرتهم البيضاء والعينين اللتين تخترقان غشاءا ما في داخلي وتزرعان هنا وهناك ألغام الشهوة والعشق المتجدد للحياة ونزواتها...

تستقبلني إسطمبول بجفاء أفهمه جيدا.. توقعَت أن تراني برفقة زوجي وولعه الطفولي اللذيذ بتاريخها ومعالمها الشامخة وسط الضباب.. (وأنا التي اعتقدت أني سأجده هنا حالما أحط قدمي على أول شبر من أرضك.. ظننتك المدينة الوحيدة التي ستستطيع احتواء روحه الهائمة وهاأنا أجدك مثلي تماما، لا تفهمين لماذا رحل وإلى أين هو سائر بنا وبذكريات ملحة ترفض الإغفاء قليلا.. أنا امرأة كالأخريات، عاجزة عن اختراق الأفق لإيجاد فارس مسرع نحو المجهول، أما أنت فمدينة عظيمة لم يستطع التاريخ والموت إسقاطها من عرشها الأبدي، فكيف لا تعرفين مكانه؟)

أخاطبها بلهجة اللوم ربما اقتداء بنابليون وهجومه الدفاعي، ربما أطلب منها أن تغفر لي مجيئي دون زوجي ودون عينيه القادرتين دائماً على القفز فوق حواجز الصمت والأسرار للوصول إلى قلب المدينة وغمره بقبلات العاشق الأبدي.. أَحَبَّها كما لم يحدث له أن أحب امرأة من قبل.. وبادلته الحب بصدق وكشفت له عن بقاع اللذة المخبئة تحت زي الضباب والتاريخ.. أدركت أنه يعرفها منذ ميلادها مجرَّد حلمٍ مجنون في خيال عثمان ابن أرناؤوط في صحراء الأناضول.. يعرفها ويخمن جراحها التي ما انفكت تتكاثر وتنمو مع انتشار الإمبراطورية في أصقاع العالم وهزائمها وانتصاراتها المتعاقبة وخيانات السلاطين ومكر الجواري الأجنبيات وتخاذل الوزراء وغباء الانكشارية.. مدينة لم يفهمها أحد لأن لا أحد أصغى إليها حقا، كامرأة لا يهم الآخرين منها سوى جسدها، أما الكلمات المختنقة كما الدموع التي تريد الإفلات أخيرا لترتاح المرأة والمدينة فيها فوحده زوجي استطاع التقاطها من رحم الصمت وصار بذلك السلطان الوحيد الذي أحبته فعلا والذي لن يذكره التاريخ.. ربما لأن التاريخ لا يتذكر سوى هؤلاء الذين كتبوا أسماءهم من دم المدينة على جبينها المحموم، الذين خلدوا في ذاكرتها لأنهم اغتصبوا روحها وخربوا كل شيء في ركضهم المجنون خلف سراب العظمة..

هاأنا من جديد أطل على تركيا والبوسفور يغسلها كل يوم من أعلى جامع السليمانية.. أخط على ورقة بيضاء بعض الكلمات التي طرأت على الذهن دون سابق إنذار، أطويها في شكل طائرة

صغيرة وأطلقها للريح.. ربما مرجاة أن تصل إلى زوجي أو إلى رجل وحيد وسط ضجيج المدينة، يبحث مثلي عن وسادة أخيرة، يذرف عليها بعض الدموع ثم ينام...

وهاأنا في كنيسة "سانت صوفي" التي تحولت بعد استحواذ محمد الفاتح على القسطنطينية إلى مسجد "آيا صوفيا" كما تحولت القسطنطينية إلى إسطمبول.. مسجد مازال يحتفظ برائحة الماء المبارك وحفيف الملائكة حول اليسوع المصلوب وسط غمام البخور وتعاويذ القس وهو يتلو قداس الأحد.. ودموع قسطنطين وهو يرى عاصمة إمبراطوريته تتهاوى بانتشاء بين ذراعي الفاتح التركي غريب الوسامة؛ كأية امرأة تهجر زوجها العاجز لتولد من جديد مع رجل قوي جاء على حصانه المطهم من البعيد..

وهاأنا أمام قبر "أبو أيوب الأنصاري" الذي تحول من مجرد قبر إلى مكان مقدس يتلقى فيه كل سلطان جديد سيف الخلافة ويقوم بتوزيع العطايا على جنود الإنكشارية وإلقاء كلمة أمام أعضاء الديوان بمناسبة تخلصه من أخيه أو أبيه واعتلائه أخيرا عرش الخلافة..

كل مكان تطأه قدمي في هذه المدينة يذَكِّر بجرح قديم في جسدها العملاق.. جرح ربما تكفلت تغيرات الزمن بتضميده لكن هناك دائماً إشارة إليه، إلى حكايته النازفة ودموعه التي لم تجف بعد، بل تغمر المدينة بأسرها متغلغلة في أعماق البوسفور صاعدة إلى قلب غيمة هائلة وهاهي تنساب هادئة وحامضة على خدود المساجد والقلاع لتغسل ذاكرة إسطمبول وتجعلها أكثر لمعانا

تحت الشمس..

أغتسل أنا الأخرى سعيدة بتغير كل شيء في هذه المدينة حالما يغمرها الشتاء بقبلاته الكئيبة فيتقلص ضجيج المارة الذين يهربون من المطر إلى المقاهي والبيوت وتعود الشوارع إلى صمتها الإلهي رغم بقاء بعض الباعة المتجولين وهم ينادون على سلعهم بغبطة من سطر لنفسه هدفا ويعيش من أجل الوصول إليه: الحياة.. وتعود للمدينة عذريتها الأولى فتختفي أسماء المغتصبين وتتطهر الجراح القديمة بدموع السماء ويختفي الحقد من عينيها اللتين صارتا فجأة عيني طفلة لم تعرف من الحياة سوى حنان الأبوين ولون الفراشات ومنظر الغروب على ضفاف البوسفور.. تعود إسطمبول سيدة العالم، خفيفة كامرأة شابة تكتشف يوما بعد يوم سطوة جمالها على الآخرين، حرة ولذيذة كحبة المطر التي حطت ببطء على شفتي واستقرت في حلقي مُغَيِّرَةً طعم الكون بأسره..

وهاأنا من جديد في مواجهة مشروع الرواية.. بياض الصفحة الافتراضية التي تطل علي من خلف الشاشة يغريني بالعودة سريعا وبعنف إلى عالم الكتابة؛ لكنني أظل أكبح عنان الشهوة كما لم أفعل يوما حين يتعلق الأمر بجنية الليل.. الآن، ليست هي من يسيطر علي بل الكاتبة؛ أو ربما زوجة الكاتب.. أتمهل في السير إلى الكلمات فتعاملني بالمثل هي الأخرى، تزحف ببطء نحوي مستمتعة بلعبة تأخير اللذة وانتظار وصول الحمم إلى حرارة غير محتملة تقود إلى الانفجار..

أتذكر زوجي وما قاله عن الكتابة وقدرتها على إعادة تلوين العالم وإسالة لعابنا من جديد لالتهام الحياة.. وتَخِزُني قناعة مسبقة بأن هذا لن يحدث.. ربما لن يحدث لأني أقنع نفسي منذ الآن أنه لن يحدث.. ويقودني هذا إلى اكتشاف قدرة الإنسان على تغيير حياته أو الغرق بها أكثر في مستنقعات السأم بسبب الأفكار المسبقة التي يكسو بها كل ما يمكن أن يحدث في المستقبل.. يقول: "طعم التفاحة سيكون مرا" لحظة يراها مازالت جزءا من الشجرة ويشي احمرارها الناصع واستدارتها بنضجها وذوقها الشهي.. لكنه يقطفها والفكرة مازالت عالقة بذهنه.. وحين يقضمها، يصل الذوق إلى حلقه مرا كما توقعه تماما، أو كما رسمه لنفسه.. يقول: "أجد صعوبة في التنفس، سأموت".. ويموت فعلا بعد أيام لا لأنه كان مريضا بل لأنه اقتنع بموته القريب..

وهكذا أعرف أن الكتابة لن تنجح في إلهاب رغبتي بالحياة وأعرف أنها لن تنجح لأني مقتنعة بذلك وليس لعجزها هي عن النجاح..

متاهة لذيذة.. وربما وحدها المتاهة قادرة على إعادة تلوين العالم ولكن لتزيد من اقتناعي أنها ألوان كالأقنعة تغطي وجها بشعا، مخربا بالعواصف والسكون المزمن.. والسأم..

السأم.. ليس لأن زوجي مات قبل أن يصل بي إلى ما أريده ولا أدريه.. ليس لأنني أرض عامرة بالثروات يتعاقب عليها الفاتحون والغزاة، تماما كإسطمبول، وتتداول على عرشها جنية

الليل وامرأة المرآة والطفلة التي تطارد الفراشات، والمراهقة التي تطارد الغيوم.. ليس لأن كل هذا لن ينتهي يوما.. ليس لأني أعرف وأتمنى أن كل هذا لن ينتهي أبداً... ولكن لأن السأم يرسم نفسه أمام عيني الذاكرة والإدراك الآني والقناعة الأزلية بلون واحد: الرمادي.. اللون الحقيقي لكل شيء.. أتمسك به وأحميه من رياح الوهم والآمال الجديدة ليس حبا به أو إكراما للكبرياء، بل خضوعا للحقيقة.. فالحقيقة لونها رمادي.. وعندما ندرك ذلك، يصعب علينا الالتفات إلى الألوان الأخرى، الفاقعة، المشبعة بالحياة والمتعة.. الحقيقة التي أكرهها لكني أبقى ملتصقة بها تماما كإسطمبول التي ظلت تتشبث بخلافة العثمانيين الذين كرهتهم لكنها كانت فرصتها الوحيدة للنجاة من الغرق: الخلافة كرمز بالرغم من حقارة وغباء الخلفاء الذين يمثلونها...

وعوض الغرق في حنين الأبيض إلى صديقه اللدود: سواد الحبر والأفكار الافتراضية، أنصت لليل وهو يتجول في أزقة المدينة، أراه يدخل من نافذة الغرفة، ويقترب مني هامسا" :لقد قتلت الجميع في الفندق وفي الشوارع أيضاً.. نحن وحدنا الآن.. احكي لي قصة حتى أنام.."

وأغرق في أوراق الماضي، أنتشل زوجي من قبره وأمتص كل الحكايا التي تستمر في الحياة معه حيث هو، أنتشل جثتي من قبرها الافتراضي وما تبقى فيها من تفاصيل رثة لما قد يكون حكاية ميتة، أجول بين دهاليز الداخل وألتقط هنا وهناك فتات القصص المعلقة، أعود إلى الرجال الذين اقتنصتهم جنية الليل في

لحظات الجنون وأسرق منهم حكاياهم نصف الوهمية، أعاود اقتحام روايات زوجي وأنهل من الفراغ والصمت والأشباح عواء قصصهم الدامية... أحكي كل هذا لليل وأنا أهدهده على أراجيح السلام المؤقت الذي يزورني في مثل هذا الوقت ويرحل مع أنفاس الصباح.. أداعب وجه الليل المستسلم لسحر فسيفساء الحكايا وسحر إسطمبول الساهرة على كل شيء.. أصير كإلهة محلقة حول الكون، ترعاه بصبر الجدة التي يلذ لها الاستسلام لإلحاح أحفادها في أن تحكي لهم قصة الغول والأميرة الحسناء.. وقبل أن يكتمل مشهد الخلود، أنام متعبة من ركضي خلف سراب إسطمبول ويبقى الليل ساهرا وقد فشل مرة أخرى في النوم...

* * *

لن تكف هذه المدينة عن إدهاشي أبداً..

أمضيت شهرا كاملا في تركيا حظيت إسطمبول بالقسط الوافر منه أما الأسبوعين الأخيرين فقد قضيتهما بين قونية وبورصة وإزمير ودينيزلي حيث تستمر المياه في جريانها السري تحت "باموكال" (حصن القطن) وطرابزون وأنطاكية وقبور الميرا المنحوتة في جبل صخري صغير.. ثم عدت إلى سرير البوسفور أخيرا حيث يلتقي بحر مرمرة والبحر الأسود في قصيدة حب لانهائية..

وهناك، فاجأني الحب كوعكة أخيرة لمرض مميت، التهب تحت الوسائد والأغطية المبطنة وانتشر في الغرفة خافتا في البداية ثم أخذ أنينه يعلو شيئا فشيئا ليصير صراخا متألما جعلني أقفز من السرير وأخرج إلى إسطمبول بحثا عن وجه لم أعد أفرق بين

ملامحه وملامح المدينة، عن الرجل الذي يسكن ذاكرتنا المشتركة..

وهناك، في أقصى الشارع المنفلت من الساحة الكبرى وسط سكينة الليل، ظهر لي أخيرا، محلقا في العتمة، مبتسما كعادته في لحظات الطمأنينة والراحة.. استيقظن كلهن وخرجن من أحشائي: امرأة المرآة، جنية الليل، الكاتبة، الزوجة والأم المؤجلة.. طاردنه إلى ما خلف جدران الصمت والموت.. استمر وجهه في الارتسام واضحا ومشعا تحت أمطار هادئة، استمر في الهرب ببطء واثقا من أن لا حاجة إلى السرعة الآن، وقد اضمحلت أبعاد الفضاء وتلاشت المسافات؛ وهاهن يلهثن في الركض وراءه بينما يزحف إلى الخلف في حركات دائرية متموجة مع أنوار الليل الباهتة وأسوار المدينة التي أحاطت به من كل جانب كذراعي امرأة عاشقة.. رحت أركض معهن وأنا واثقة من أننا لن نلحق به أبداً.. فهناك شيء في غمرة هذا الاشتهاء والحب يمنعني من الوصول؛ قد يكون التاريخ أو الموت أو الخوف من تبخر غيمة ما تظهر لي هي الأخرى من بعيد..

ابتساماته كالعادة ترسم لي وجها آخر للمدينة.. تصير إسطمبول مكانا لا يصلح إلا للحب الذي يخترع نفسه دائماً في لحظات الوداع.. وهناك، بين شفتيه الشهيتين، تنساب كلمة كخيط دم رائعِ الحمرة: "اكتبِ"..

ودعت تركيا وتركت بين مسامها كلمة حب للرجل الذي اختارها أرضا بلا منازع لحياته الجديدة.. وعدت إلى البيت

محملة برائحة أنفاسه التي لفحت وجهي وهو يتفوه بكلمته الوحيدة: "أكتبِ"....

* * *

ولم أكتب شيئا.. كان علي قراءة رواياته من جديد، بعض الرسائل الهشة المستسلمة بلذة للنسيان والغبار، أسطوانات شوبان التي خَفَتَ رنينها فجأة ليحتل الصمت مجمل البقع الموسيقية التي بدت لنا غامضة فيما مضى، كلمات مقتضبة تصطدم ببعضها في رقصة همجية على هيئة مذكرات...

وبعد أن أنهيت كل هذا، دخلت من جديد إلى ورقتي البيضاء خلف الشاشة، لكني لم أجد شيئا لأقوله.. وتذكرت فجأة ما قاله النبي محمد لجبريل في غار حراء: "ما أنا بقارئ".. أغلقت الورقة البيضاء ومعها مشاريع الروايات والهزيمة المسبقة.. قهقهت عاليا وأنا أتمتم: "من المفيد أن يداهمنا الإيمان بالرسل في المآزق الصعبة كالكتابة مثلا.." وأُشهِرُ ما قاله الرسول في وجه الشاشة ووجه زوجي صارخة: "لست بكاتبة.. بل زوجة كاتب.. ويكفيني هذا لأكون نبية"

* * *

يحلو لليل تعليق الرحلات الجوية الطارئة لسبب أجهله.. والمطار كأي مكان آخر عامر بالأنفاس الكريهة والقصص المعلقة والمشاغل اليومية.. بين كرسي وآخر، هناك كرسي حتما.. وكل الكراسي محتلة من طرف المؤخرات العفنة لرجال ونساء يمكن أن نفكر بأنهم يصلحون للجنس لكن فكرة العفن قد خيمت على كل

شيء حتى على عيني هذا الرجل ذي الوسامة اليونانية الذي يجلس بالقرب مني..

هناك طائرة كان علي امتطائها للذهاب إلى مزرعة تولستوي كعادتي في آخر كل فصل.. لكن الصدف الطارئة كموت في غير أوانه، أرادت أن تجعل من هذه السفرة مشروعا لجنون عنيف سيأخذ شكله النهائي بعد عودتي إلى البيت.. ربما لأن الانتظار لم يكن يوما جلادي المفضل.. أما الانتظار في المطار مع جمع لا بد وأن يتبادل الكلمات الصفراء مرفوقة بالابتسامات الصفراء والتفاصيل الصفراء لحياة تمضي ببطء من الأصفر إلى الرمادي... كل هذا لا يطاق.. لكني مجبرة على البقاء ريثما يقرر المسؤولون عن هذه المهزلة السماح للطائرة بعبور السماء التي تعلن بمرح نهاية الخريف وكآباته الصامتة.. فالعودة إلى البيت سيعني حتما تأجيل السفر إلى ما بعد الشتاء.. ربما لأن المزرعة ترفض مثلي فكرة التأجيل، لأنها تدرك مثلي أننا أجلنا أشياء كثيرة خلال سنوات لنتأكد من أنها موجودة حقا.. أجلنا الحياة والحب والكتابة والفرح.. ولا بد من أن يوجد شيء على الأقل يحدث في وقته، في لحظة ميلاده رغبةً مضطرمة هائجة..

- الرحلة أُجلت إلى صباح يوم الغد.. عذرا على تعطيل مشاغلكم..

(في الحقيقة يا سيدي، أنتم لم تعطلوا شيئا سوى الحرية.. وهذا ذنب مغفور بما أنني لست متأكدة حقا من وجودها...)

يستقبلني البيت كعادته بنظرة مميزة تنم عن فهمه المطلق لما

يحدث.. لا أفكر كثيرا بلون السماء والحشائش البرية التي لن أراها قبل ثلاثة شهور..

يخيل إلي أن الجنون مجرد فكرة، رغبة عاجلة في الطيران، قرار مفاجئ نتخذه في لحظات السعادة أو السأم.. أجد نفسي غير مؤهلة لكل هذا.. تمر الكلمات مسرعة على جدران الذاكرة، الابتسامات المقفرة من كل معنى، النظرات التي تبحث عن شيء ثمين، الاختناق الهادئ الذي لا يُصدر أي صوت، لا يطلق أية رائحة.. هناك النجوم التي تبدو على استعداد لاقتحام العالم لكنها تنتظر شيئا ما.. هناك الفضاء المحاصر بشيء أكبر منه، يتوقع بين كل لحظة وأخرى أن أقول كلمة يمكنها أن تحرره أخيرا وتمنح للماء ذوقه الحقيقي وللسماء سنوات مراهقتها الأولى..

يحن كل شيء إلى ماضيه الذي لا يتذكره.. وأنا في كل هذا، أتقهقر أمام زحف الحقيقة.. تخيفني وأكرهها.. تماما كالكتابة التي تريد إقناعي بوهم النبوة، بجدوى الكلمات، بقرب الخلاص..

يتهاوى السحاب هو الآخر وأجد نفسي بين الانهيار والطيران.. يجذبني شعاع رقيق وشفاف، لكن نظراتي تخفت شيئا فشيئا ليحل الظلام، والقناعة المؤلمة بأن كل ما يحدث لا يحدث حقا وإنما يخضع لخيالنا وضعفنا أمام الفراغ..

- عندما نصل إلى هذا الحد الأقصى من الوعي بذاتنا وبالآخرين، لا يبقى شيء يا عزيزتي.. الغيوم والكنز المفقود وأسرار الفرس والشهقة الأخيرة ليست سوى هدف وهمي تحاولين إقناع نفسك بالبقاء من أجله.. لكنك تعرفين، في نقطة سوداء من داخلك أنه

لم يبق شيء... لا شيء سوى الموت.

- هل تقترحين علي الانتحار؟

- بوسعك انتظار موت عادي لا أدري إن كان سيأتي قريبا أم لا.. لكن ذلك لن يغير في حياتك شيئا.. أما الانتحار فأمر مرتبط بشجاعتك وحبك للحقيقة..

- هل هناك إنسان على هذه الأرض بإمكانه أن يحب الحقيقة؟

- كلنا نحبها لأننا لم نعرفها بعد.. أما أنت فتَدَّعين كرهها لتقنعي نفسك بأنك وجدتها.. والواقع غير ذلك..

- وجدت أشياء كثيرة لا فائدة منها وأظن أن الحقيقة جزء منها كلها..

- ماذا وجدت؟

- وجدت الحب مع زوجي وقدرته على الاشتعال لإضاءة الكون والانطفاء فجأة في اللحظة التي كنت على وشك الوصول إلى شيء لا أدريه ولكني أريده.. وجدت الكتابة وقدرتها على تفريغ شحنات الصمت والألم والإدراك الكثيف بالذات والآخر لكني تخليت عنها حين اكتشفت أنها مجرد وسيلة لمخاطبة الآخرين حتى وإن أقفلنا عليها بكلمة سر نظن أن لا أحد سوانا يعرفها.. وجدت اللون الأصلي لكل شيء وقدرته على اقتلاع قشرة الكون ليجعل منه مجرد ظل عابر في قصة لانهائية.. وجدت مساحات سرية في داخلي كان يكسوها الصمت والضباب، لا يملؤها سوى الفراغ وصدى صوت بعيد لم أفهم بالضبط ما الذي يريد قوله.. ولا أدري لم أشعر دائماً أن وراء كل ما وجدته هناك شيء آخر علي البحث عنه.. وحين أجده، سيكون وراءه شيء آخر سأجبر

على البحث عنه.. هل ستستمر هذه الأسطوانة إلى ما لانهاية؟

- ستستمر بما أنك مقتنعة بأنها موجودة حقا.. وعندما تمتلكين القوة الكافية لتقرري أن الفراغ صار يعم كل شيء ولم يبق لك سوى الرحيل، سوف تضعين نقطة النهاية لهذه السراديب الوهمية وتنالين الراحة..
- أتعنين أن كل شيء مجرد فكرة أخترعها وأومن بها؟
- تماما يا عزيزتي.. كل شيء: الحب، الصداقة، الحزن، الكتابة، الحياة، الأهداف المستحيلة، الغيوم الهاربة، الوطن المفقود، الكنز الضائع... كل شيء... إلا الموت، الموت ليس فكرة مجردة بل بابا حقيقيا يظل الوحيد الذي يفتح لك حين تطرقينه.. لأنه الوحيد الموجود حقا.. أما البقية فغير موجودة سوى في خيالك.. يرسمها على جدران الفراغ، يقنعك تارة أنها مفتوحة فتدخلين ولا تجدين سوى فراغ أكبر وتارة يقنعك أنها موصدة فتستمرين في القرع والإلحاح كمجنون يتخيل أشخاصا أمامه ويخاطبهم...
- لكن الموت يبدو لي أكثر سخافة من كل ما أعيشه الآن.. هناك شيء في حياتي ينتظر لحظة ما ليولد ويجعل مني امرأة أخرى.. أخاف أن أرحل وأقتل هذا الاحتمال قبل ولادته.. وبالمقابل، أخاف أن أبقى في انتظار ولادته وبعد سنوات من الانتظار لا شيء يميزها سوى السأم، لا يحدث شيء...
- هل يتعين علي أن أفهم أن أحلامك أقوى منك؟
- ليست أحلاما بل قناعات..
- لكن القناعات أحلام يقظة..

- إن سَلَّمَ الجميع بما تدعينه، سوف يعم الخراب العالم وينتهي كل شيء..
- أتعتقدين أن ذلك لن يحدث أبداً؟
- بلى سوف يحدث.. ولكن ليس لأن كل حياتنا كانت مجرد فكرة نخترعها ونؤمن بها.. بل لأنها قصة حلزونية لا بد من اصطدامها يوما بحائط حديدي لتنتهي وإلا سوف ننال الخلود..
- ومن قال لك أن الخلود ليس فكرة هو الآخر؟ الدليل أن هناك كتابا يعتقدون أنهم نالوا الخلود بعد بقاء أسمائهم مشتعلة في ذاكرة الأدب وكذلك الملوك وأبطال الحرب الذين لم ينجح الموت في حذفهم من ذاكرة التاريخ.. حتى الأشخاص العاديين، ينالون حظهم من الخلود في لحظات الانعتاق العابرة بين الحشيش والمشروب والنساء.. .وبهذا يصبح الخلود مجرد فكرة نسبية كغيرها..
- أنت مجنونة.. ولا أدري ما الذي يدفعني دائماً لسماع حماقاتك..

تفاصيل مهترئة كأصحابها.. وحوارات ضبابية تقود إلى الهوة الوحيدة التي لا تنتهي أبداً بالسقوط.. حتما سوف أبقى من أجل ما لا يوجد.. وحتما سوف أكتشف يوما المكان السري الذي تنطلق منه كل الشرارات..

أما الآن، فسوف أنام..

* * *

لا تشبه المسافات نفسها بين ليلة وأخرى.. يتغير كل شيء مع تغير مزاجاتنا ودرجة شوقنا للحياة.. يختفي الماضي مؤقتا، يقف

دقيقة صمت احتراما لجنون جديد جاء ليخفف عنا ثقل العادة والسأم.. وهكذا كان على السيارة أن تنتحي أطول المسالك للوصول إلى المزرعة..

لم أعد أثق بحياد الطائرات.. أحيانا، تنتابها رغبة مفاجئة في تعطيل مشاريع الحرية والسلام المؤقت.. هكذا، دون سبب، نزوة عابرة مثل نزواتنا، لا تثمر سوى الخراب وكمية إضافية من القرف واللاطمأنينة.. فلتكن للآلات نزواتها.. سيارتي صديقة وفية وتفهم متى بالضبط عليها أن تلتزم الهدوء وتجنبني خيبة أخرى..

لا بد وأن أعترف أني أذهب إلى المزرعة من أجل كولومبيا.. مازلت آمل بإيجاد ذلك النور الذي يصطخب في أحشائها ويرفض أن يفصح عن نفسه.. مازلت أنتظرها كنبي ينتظر بصبر وحي الإله.. هناك في لغتها ما يغري "روح الكاتبة" فيَّ، يقنعني أنني سأنجح يوما في قراءة الرسالة المنقوشة على نظراتها التائهة وصهيلها النازف...

أسافر إلى كولومبيا كما كل مرة، معبأة بالآمال المشحونة بكهرباء قديمة.. متعبة كالعادة من ثرثرة الزملاء ونظرات المارة التي لن أتمكن أبداً من حساب نسبة البلاهة فيها.. مستاءة من شيء غامض.. حزينة بما يكفي لأستمر في التفكير.. والطريق إلى المستحيل تطول كما لتأخير لذة سرية قد بدأت تشرق من خلف الضباب.. وهناك، في الضفة الأخرى من الوهم، حقيقة تريد الصراخ.. يؤلمني حدسي بوجودها واقتناعي اللامعقول بأنني لن أعرفها أبداً.. ربما لأني لا أريد أن أكرهها.. ربما لأني صرت

أعرف جيدا أننا كلنا نحب الحقيقة بما أننا لم نكتشفها بعد..

وهناك كولومبيا التي لا تسلِّم عنانها لأحد.. كأرملة أعاد إليها موت زوجها عذريتها الأولى، كراهبة لم تصدق إشاعة موت الإله وظلت تنتظر انبلاجه من خلف الأيقونات والبخور والصمت..

وأنا، حبيبة فاشلة بما يكفي لتستمر في عشق زوجها.. امرأة ستظل دائماً في حكم الغائبة بما أنها لم تثبت حتى لنفسها أنها موجودة حقا..

لكن الطريق تطول.. تطول وتسخر من الكيلومتر والميل والساعات الهاربة دون منطق.. والسيارة تمارس الحب مع عاشق مجهول... كم تصبح الحياة جميلة عندما نراها مسرعة هكذا إلى الوراء.. مسرعة لا ندري إلى أين لكننا نخلفها وراءنا.. نخلفها وراءنا..

* * *

وفي المزرعة، يخيل إلي دائماً أن الحياة موجودة في الجهة الأخرى من الكون.. وأن كل ما يحدث لي وللآخرين ليس سوى تجارب علمية تحدد استحقاقنا للارتقاء إلى الحياة.. لا يمت هذا بصلة لنظرية الآخرة أو نظرية صديقنا داروين.. وإنما نشعر في لحظات لا نعرف أبداً متى تأتي وكيف أن هناك شيئا مزيفا في كل ما نعيشه كل يوم، هناك شيء يريد الوصول والاكتمال أخيرا.. هناك كائنات تحيى بداخلنا وتنتظر أن نجد لها عالما تستطيع التنفس فيه عندما تخرج إليه.. هناك ذكريات لم تحدث في الماضي ولكنها حدثت فينا، في الفضاء اللامحدود والميت الذي

يشغل تلك المنطقة المعتمة من الداخل، تلك التي يسميها البعض "باللاوعي".. هناك لحظات يزدوج فيها كل شيء، تمتزج فيها التناقضات وتتعطل الآلة التي تمنعنا عادة من اكتشاف ما هو أقوى منها.. لحظات لا نفكر بها كثيرا لأننا خائفون..

لكني في المزرعة، مضطرة لأن أكون شجاعة.. فكولومبيا مازالت هنا ومازال صمتها يشعرني بالأمان والثقة.. وتلك القناعة المؤلمة التي تسكنني مذ عرفتها، تلك التي تربط حياتي بحياتها.. إن ماتت هذه الفرس، سوف أغرق قبل عبور النهر والوصول إلى الضفة المقابلة، حيث الحياة، حيث النهاية التي لن أرجو بداية بعدها..

- أكتبِ وسوف تصلين..
- دعني وشأني.. ما أنا بكاتبة..
- كولومبيا كتبت كل ما بوسعها لتمهد لك السبيل.. أكتبِ لتصلي إلى الكتاب المقدس.. وعندها، سوف يقودك إلى الحياة..
- لن أصل إلى شيء.. ألم أقل لكَ يوما أن كل شيء قد كُتب الآن.. وكل ما نفعله هو صياغة كلمات الماضي في أزياء جديدة وتلوينها بألوان أخرى لنخدع أنفسنا والآخرين؟
- نعم، قلت لي ذلك يوما.. حماقة كالأخريات تهلوسين بها عندما ينتابك شيطان الفلسفة الفراغية.. أنت مقتنعة مثلي تماما أنك سوف تتمكنين من خلق هذا الكتاب.. لكنك خائفة..
- لست خائفة وإنما سئمة من كل شيء، حتى من الأشياء التي لم أعشها بعد..
- أنت خائفة وتدعين التعب.. خائفة من الوصول.. كنت مثلك،

أسمع أصوات العالم الجديد خارج القفص الذي بنيته حول نفسي ولكني أرفض الخروج، خوفا من الاختناق والموت.. لا أريدك أن تندمي حين لا ينفع الندم.. لا بد أن تغامري بكل شيء.. لا تنسي الوطن والكنز والغيوم الهاربة..

- من أين أبدأ؟ كيف أرتب فوضى الكلمات والأفكار؟ متى ستتكون أولى ملامح هذا الكتاب اللعين؟ وهل سيكون رواية أم محاولة فلسفية خائبة؟ هل سيكون مشروعا للنشر أم للغرق في غياهب الغابة الإلكترونية المغلقة بكلمة سر؟ من سأرى وأية ذكرى يجب أن أستحضر وأنا أكتب؟ وكيف علي أن أبدأ؟ ومتى يتوجب علي أن أتوقف؟
- أكتبِ.. هذا كل شيء..
- أريد أن أنام.. والكتابة ممارسة أبدية للأرق..
- أكتب وبعدها نامي دون خوف من اليقظة، دون قلق، دون حروب صامتة..
- لا أدري كيف أكتب لأموت.. لا أدري كيف أحيا لأكتب.. لا أدري كيف ألحق بك.. ربما لأني لم أعرف يوما أين أنا وكيف يتعين علي الإمساك بالشوكة والسكين.. ربما لأني مازلت تلك اليرقانة الخفيفة التي لا تريد الارتقاء.. ربما لأني خائفة من الحياة الجديدة التي تنتظرني في الضفة الأخرى..
- أكتب كل شيء.. دعي يدك ترقص كفراشة وسوف ترين الكلمات تنزلق وتذوب في فسيفساء داخلك.. هناك في الكتابة شيء يستعصي على الفهم.. لطالما اعتقدت أنها كولومبيا أخرى، تختار فارسها وتهديه كل الأسرار، دون مقابل..

- أتعني أنني الفارسة التي سوف تتمكن من امتطاء الكتابة والوصول بها إلى المنتهى؟

- أكتب ولا تسألي كثيرا.. أكتب ما لا تدرين.. أكتب ماضيك الذي لم تعرفيه بعد والمستقبل الذي تعرفينه جيدا.. أكتب إلى أن يرتسم لك شعاع شفاف كدمعة ويخترق الشاشة ويقودك إلى الخارج..

- وأنت، كيف حالك؟

- أجمل ما في الموت يا حبيبتي أننا لا نعرف شيئا عن أنفسنا.. ولا يهمنا أن نعرف..

سيأكلني التراب يوما.. عندها، سوف أستطيع كتابة ما يطلبه زوجي.. أما الآن فأنا حية بما يكفي ليمنعني ذلك من إيجاد حبة الغبار الضائعة التي سوف تقودني إلى "الكتاب.."

* * *

- هذا المرض اللعين.. متى سيكف عن التهام العالم؟

تصرخ رانيا وهي تلقي بالجريدة على الأرض.. ألاحظ أنها تمكنت من إقناع إدوارد بالإبقاء على خيط رفيع يصلهما بالعالم، فقد كان قبل زواجه يمنع دخول أية جريدة أو وصول أي صوت من عالم الخارج إلى البيت.. لا يهمني هذا التغيير كما لم يعد يهمني شيء من تفاصيل الآخرين..

وقبل أن أبدأ بالغرق في بئر تأملاتي الدقيقة واللانهائية، أفكر رغما عني بما قالته رانيا: "المرض الذي سيلتهم العالم".. ربما لم أُعِرْهُ أي اهتمام عندما بدأ الجميع يتحدث عن هذه الجرثومة

الغريبة التي تسافر مع الريح وتبث الموت في كل مكان.. ولكني الآن، أفكر بها وأشعر أن بيننا ذكرى مشتركة.. حياة عشتها معها في زمن فات، حين كنت مجرد يرقانة مثلها.. ربما أفكر بها لأنها تفلت من قبضة الرمادي وتنجح في طلاء وجه العالم بالأسود، بالموت..

الأطباء مازالوا يكافحون من أجل إنقاذ ما تبقى في كل بلد.. لكنها تستمر في زرع الموت أينما حلت.. ربما كانت الجني الذي يعتقد زوجي أنه ينام تحت أرض تركيا وسوف يستيقظ يوما لتطهير العالم.. نعم، ولم لا؟ تركيا ضُرِبَت بقوة هي الأخرى بهذه اللعنة.. ونحن، هل نحن بعيدون عن مرمى جموحها؟

- لا تقلقي يا عزيزتي، هذه البرية محاطة بسياج مضاد للجراثيم والأغبياء، وسوف ترتد على أعقابها حالما تحاول الاقتراب منا..
- ولكن، ألا تفكر بالآخرين؟ هؤلاء الذين يموتون كل يوم بالمئات في كل أنحاء العالم؟
- من حسن حظي أنني لم أختر مهنة الطب وإلا كنت سأقتنع بكلامك..

إدوارد رائع دائماً حتى وهو يشغل دور الزوج في كتاب حياته.. أما رانيا فقد نجح "كانط" في تخبئة أنقاض "إنسانيته" في روحها.. علَّ العالم سوف يستيقظ أخيرا ويرضى بفلسفته قانونا وقائدا.. المضحك في الأمر أن كل شيء يدعو للضحك لكننا نأخذه جديا على محمل الجد.. أظن أن هذه الجرثومة لن تدع

العالم وشأنه حتى يكف عن الكذب ومراءاة نفسه أمام المرآة..

أما كولومبيا فصامتة إلى أجل غير مسمى.. يفتح لها إدوارد أحيانا باب الإسطبل فتنطلق بسرعة جنونية كالحُب لتتوقف أمام نبع الماء حيث مات تولستوي.. تقف هناك وتنظر إلى الأفق.. كأن ميشو كان يصفها حين قال: "حلم فروسي: حصان التهم عربته وراح يحدق في الأفق"..

والريح تحمل مع الجراثيم صرير الذكريات المغلقة وعناد الحب الذي يرفض أن يفصح عن نفسه ويرفض الرحيل..

مازلت أرى في الضباب وجوها لا أعرفها لكني أتذكرها.. حين تمطر، ينتابني ذلك الحدس القديم أن نهاية العالم سوف تكون على شكل طوفان مدمر يجرف الإنسانية مع كل حماقاتها.. والرسائل التي يحملها الريح من مكان ما تظل مستعصية على الفهم.. والباقي مجرد تفاصيل عابرة لحياة لا بد وأن تكون مؤجلة إلى ما بعد النَّفَس الأخير..

- كم عددهم يا رانيا؟

- عدد ماذا؟

- هؤلاء الذين يموتون بهذه الجرثومة المباركة..

- آخر الإحصاءات تقول أن هناك مئة ألف ضحية وعشرون ألفا في الانتظار.. هذا دون أن نحصي الأشخاص الذين ستنال منهم قريبا..

- كيف يموتون؟

تنظر إلي رانيا كأنما حدسٌ أنثوي بداخلها يجس نبضةَ خوفٍ

في كلماتي.. تبتسم بحزن قائلة:

- يختنقون ببطء.. ببطء مؤلم.. يختنقون وتفقد الوجوه كل ألوانها.. ثم يبدأ النزيف اللانهائي.. كل خلية في أجسادهم تنزف.. يسيل الدم من الثغر، من الأنف، من الأذنين، من العينين، من الصدر.. من كل مكان.. يختنقون وينزفون ثم يسلمون أرواحهم..

لا أدري لماذا شعرت بأن رانيا قريبة مني في تلك اللحظة فرحت أستمر في هذياني دون أن أنتبه لنظرات إدوارد المستمتعة:

- لمن يُسَلِّمون أرواحهم؟
- لا أدري.. فلنُصَلِّ أنهم يسلمونها لشخص طيب..
- ولكن، أليس من المحتمل أنهم حين يموتون لا يسلمون أرواحهم لأي كان بل يذرونها كرماد على صحراء الكون لتحملها الريح إلى هناك؟
- هناك؟ أين؟
- هناك.. هناك.. هناك...

تحمل رانيا كتابها وتغادر الصالة كأنها تخشى من انتقال عدوى جنوني إلى الجنين الذي يطارد الحياة في أحشائها.. أما إدوارد فلا أدري لم يبدو لي وسيما أكثر مما يجب هذه الليلة..

وهناك، في الركن المعتم الذي مازال يحتفظ بأنفاس تولستوي وحرارة كلماته الجذلة، يخيل إلي أن الحياة والموت يتسامران..

- الموت: أظن أن البشر لم يفهموا بعد سبب وجودي في حياتهم..
- الحياة: وأظنهم لم يفهموا كذلك سبب وجودهم في حياتي..

- متعِبون حقا.. أحيانا أفكر أنهم يريدوننا معا في قبضة يدهم ليخلقوا عالما جديدا..
- يقولون أنني جميلة ورائعة فيتشبثون بي كما الغريق بقشة النجاة.. ولكنهم يريدون اكتشافك أنت أيضاً.. ربما بدافع الفضول..
- أي فضول يا صديقتي؟ لا أتذكر أن أحدا فتح لي ذراعيه مرحبا وأنا أدخل إليه لأتسلم روحه وأرميها في المستنقع السفلي.. حتى هؤلاء المنتحرون، يحاولون التخلص مني حين يداهمهم الندم في آخر لحظة وقد كانوا هم من دعوني إلى المجيء.. لن أفهمهم أبداً..
- ألا تريد أن تخبرني إن كان "الرئيس" قد قرر القضاء عليهم نهائيا بهذه الجرثومة الجديدة؟
- أقسم لكِ أني لا أعرف.. عندما استدعاني منذ شهرين قال لي فقط أن كوكب الأرض صار أثقل مما يجب ولا بد من إعادة التوازن إلى الموسيقى الكونية..
- حاولت في إحدى جلساتنا الدورية أن أقنعه بضرورة الاستغناء عن مشروع الأرض ومحاولة إيجاد طريقة أخرى لبناء العالم..
- وما كان رده؟
- أنت تعرف أنه لا يفصح لأحد عن نواياه.. لم يقل لي شيئا.. اكتفى بالصمت.. الصمت الذي يزن أكثر من أي ثقل آخر.. لا أعرف لماذا أجد في صمته مسحة حزن.. تُراه نادما على بذله كل هذا الجهد لصنع الإنسان، هذا الأحمق الذي لم يفهم شيئا حتى الآن؟
- لا.. ليس نادما.. لكنه يشفق عليهم..

- متى سينتهي كل هذا؟
- لا تسأليني فأنا أكثر شوقا منك إلى النهاية.. تعبت من العمل ليل نهار مع هؤلاء الأغبياء.. بودي أن ينتهي العالم لأحال أخيرا على التقاعد.. وإن كان الرئيس يستبعد فكرة نهاية العالم فليمنحهم الخلود وجبل الأولمب كمركز قيادة.. ولأخلد أنا للراحة.. تعبت من الموت..
- وأنا تعبت من الحياة..

* * *

لم نسمع صهيلها..

لا بد أن الأفق أرسل إليها غيمة ما ورحلت، إلى هناك، حيث يتربع تولستوي على عرش من دخان ويركض ذلك الجواد الذي لم يعد من فصيلة رديئة.. هاهو ينتظرها بشوق.. ستخلد بين ذراعيه لا للحظة انتشاء وحسب بل لأبدية أبدية، مستمرة في النهايات المتعاقبة والحيوات التي تولد في كل مكان.. مستمرة إلى ما خلف كل شيء...

تتبعثر الكلمات دائماً عندما نحاول وصف نهاية فرس.. لكن، يوجد حتما في اللغة الأخرى ما يكفي من الصمت للوصول إلى تلك اللحظة الملتهبة، حين توقفت كولومبيا أمام نبع الماء، شربت قليلا ثم سقطت على الأرض كعِتابٍ أخير..

أما الحياة وبقية ما تبقى من هواجس بلا أسماء فمجرد دموع سوف أذرفها بعد سنوات على الكائن الذي تَطَلَّبَ موتُه ثلاثة حيوات: موت الرجل ذي الأربعين خريفا ثم الإله ذي التسعين

عاما وأخيرا الفرس التي لم يعرف أحد منذ متى وهي تركض خلف الريح..

لم نسمع صهيلها لكني سأصل يوما إلى نبع ماء في آخر البرية، سأشرب منه أنا الأخرى ثم أستلقي على الأرض وأهدي للريح ابتساماتي الأخيرة..

تمت

على الساعة الرابعة من صباح يوم 2 حزيران 2006

كلمة المؤلف

كان بودي إهداؤكِ ما هو أثمن من رواية.. لكن الكاتب يبقى فقيرا ما دامت الكلمات تملي عليه عقيدتها..

حين أموت، سوف تجدين هذه الأوراق في مكان ما من الشاشة، سوف تقرئين أشياء اعتقدنا أنها كانت وأشياء أخرى أخمن أنها ستكون..

لا أطلب منك الالتزام بسيناريو الكاتب الميت.. أريد أن تنشري هذه الكلمات.. أن تُخرِجي إلى الآخرين وجها آخر لأنفسهم، أن تُريهِم كم من الصعب إثبات الأشياء التي نقبلها دون إثبات.. كم هو مؤلم البحث عن بصمة حقيقة في حياة نعتقدها حقيقة في حد ذاتها.. وكم هي مستحيلة هذه الحياة..

أعرف أنهم لن يهتموا بكل هذا.. سوف يقرؤون كتابا كغيره، سيتحدثون عنه قليلا في سهرة حاشدة بالموسيقى وضحكات النساء ورائحة المشروب.. سينسونه حتما عندما يستيقظون صباحا ويتخيلون حكاية جديدة لملء ساعات النهار.. ويرسمون ألوانا جديدة لإشعال الليل.. لكني أريد لهذه الكلمات أن تنقش نفسها في ذاكرة ما، لا يهمني نوعها.. وسوف تصل يوما، أدري أنه بعيد، إلى مكان ما.. هناك، وراء الغيوم والشمس...

شَهقةُ الفَرس

رواية

سـارة حـيـدر

• كاتبة من الجزائر

تتموج «مازوركا» شوبان بتناغم إلهي مع أصوات الليل وأغاني البيت المجاور وهمهمات العشاق المختبئين تحت أغطيتهم وأنفاسهم الحارة من برد الموت والسأم.. تراودني رغبة، كوسوسة شيطان، في العودة أدراجي والنوم.. لكني أتابع التقدم نحو منبع النور، وجنية الليل تتهيأ للانقضاض حالما أفتح باب الغرفة، وامرأة المرآة تحاول أن تقول شيئا لكنها تصمت كعادتها منذ شهور.. أقترب بخطى يشبه وقعها حفيف شجرة وهي تمارس الحب مع الريح.. ألامس مقبض الباب بيدي فيخيل إلي أنه يتحول إلى ماء ذهبي حار.. أحترق، ببطء، بنشوة الاقتراب من الشمس.. تعاودني الرغبة في الرحيل، خارج بقعة النور هذه، خارج البيت، إلى الشارع، إلى الليل وأسراره المعتقة في زجاجات تقطنها المصابيح وخمور الآلهة.. لكني أستسلم آخر الأمر وقد نسيت ألم الأسنان ولم يعد يشغلني سوى الوصول إلى نهاية خط النور المنبثق من شق الباب...

• صدر للكاتبة أيضاً:

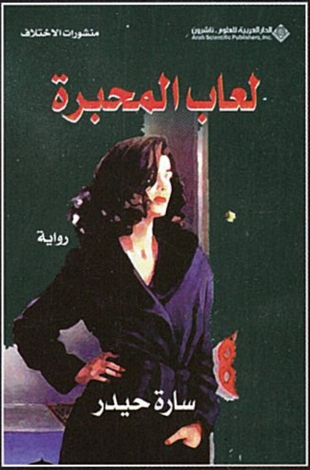

ISBN 978-9953-87-180-6

9 789953 871806

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
هاتف: 5756421 – فاكس: 5752854
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت في
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com